الدكتور
عمر الطيب الساسي
وكيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة الملك عبد العزيز - جدة

دراسات في الأدب العربي

منقحة

على مرّ العصور

مع بحث خاص بالأدب العربي السعودي

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهـــرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تتجه الجامعات ، العريقة منها .. والحديثة .. على السواء .. وفي العالم كله ، الى العناية بلغة البلاد التي تنتمي اليها عناية خاصة .. وذلك بأن تجعل دراستها واجباً من الواجبات الأساسية التي لا بد أن يلتزم بها كل طالب في الجامعة ، مهما كان تخصصه الدراسي واتجاهه العلمي ، لأن اللغة هي الوسيلة السليمة للاستقبال العلمي السليم .. أولاً .. ثم للأداء العلمي السليم بعد ذلك .

وانطلاقاً من هذا المفهوم العلمي العالمي للغة القومية ، ومراعاة للأهمية الخاصة للغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وتعاليم الاسلام الحنيف ، جعلت جامعة الملك عبد العزيز اللغة العربية – نحواً قواعدياً ، وأدباً جميلاً – من المتطلبات الأساسية لجميع الدارسين بها والدارسات ، وفي كل كليات الجامعة ، ما عدا كلية الطب .. لأن هذه البلاد هي التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى لتكون مهد رسالته ومهبط وحيه الكريم ، الذي أنزله على رسوله المصطفى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في لغة اهل هذه البلاد.. تشريفاً لهذه اللغة ، التي عزّت وسمت سمواً عظيماً بهذا التشريف الالهي الكريم .

وفي هذه المرحلة من تاريخنا المعاصر .. المشرق .. وفي خضم العمل الجاد ، في كل مجال من مجالات العلم والبحث العلمي ، وفي اطار احياء التراث العلمي الاسلامي ، لا يجوز أن ننسى لغة هذا التراث وأدب هذه اللغة .. فدراسة الأدب العربي على مر العصور دراسة تهتم بالبحث في حالة هذا الأدب في جميع الأدوار التاريخية التي مر بها ، من أجل الوقوف على مظاهر الجمال والقوة التي تميز بها ، والتعرف على عوامل الضعف وأسبابه في بعض الفترات المظلمة .. سوف تسهم ، ولا شك ، اسهاماً ايجابياً فعالاً في ربط طالب العلم في الجامعة بتراث أسلافه العظام ، من خلال فهم الأدب الذي أسهم في اثراء هذا التراث العظيم على مر العصور .

ومن خلال اضطلاعي بشرف تدريس الأدب العربي ، في كثير من فروعه العلمية ، لطلاب جامعة الملك عبد العزيز ، بشطريها .. في مكة المكرمة، وجدة ، منذ سنة ١٣٩٢ هـ ، رأيت أن هنالك حاجة ماسة قائمة الى وجود كتاب جامع شامل ، في ايجاز مركّز ودقيق ، يستطيع الطالب أن يستعين به في مجال التعرف على صورة الأدب العربي على مر العصور .. وقد عقدت العزم منذ زمن بعيد على انجاز مثل هذا العمل ، الا أن أموراً أخرى كانت تحول بيني وبين ما أريد ، الى أن هيأ الله سبحانه وتعالى الأسباب ، وتم الاتفاق مع دار الشروق بجدة على أن أقوم بانجاز هذا العمل ، الذي أقدمه لطلاب العلم ، سائلاً الله جل شأنه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحقق من ورائه الفائدة المرجوة .. في اعطاء صورة واضحة ، جامعة وموجزة في آن واحد ، لأدبنا العربي على مر العصور .

واني لأعتذر سلفاً عن أي خطأ أو تقصير غير متعمد ، ولا مقصود ، كما أقدم شكري سلفاً لكل من يرشدني الى ما يجب اصلاحه ، أو تعديله ، أو

حذفه ، أو اضافته ، لأتمكن من مراعاته في الطبعات القادمة ان شاء الله .. والله الموفق والهادي الى سواء السبيل .

١ جمادي الثانية ١٣٩٨ هـ
٨ مايو ١٩٧٨ م

المؤلف
الدكتور عمر الطيب الساسي
وكيل كلية الآداب والعلوم الانسانية
بجامعة الملك عبد العزيز بجده

المدخل

ما هو الأدب ؟

أصبحت كلمة أدب في العصر الحديث تعني عند كل الأمم التعبير بالكلمات عن كل ما في الحياة وما في النفس البشرية .. من خير وشر .. على السواء ، على أن يقود العمل الأدبي الأصيل في النهاية الى الخير دائماً ، مهما كانت نوعية الصور التي يعرضها ذلك العمل الأدبي .. والتعبير بالكلمات في العمل الأدبي لا بد أن يكون مبنياً على أسس جمالية فنية يحدد مواصفاتها، ومعاييرها النقد الصحيح النزيه ، الذي تختلف موازينه من عصر الى عصر .

ولكن كلمة « أدب » لم تحمل هذا المعنى الواضح المحدد في جميع أدوار التاريخ ، فقد كانت هذه الكلمة تنحسر في مدلولاتها أحياناً ، لتدل على معنى ضيق جداً ، بينما كانت تتسع في مدلولاتها أحياناً أخرى ، لتشمل كل العلوم أو معظمها في بعض العصور .

ففي العصر الجاهلي مثلاً ، وهو أقدم ما يعرف من أدوار تاريخ الأدب العربي ، لا توجد نصوص تشير الى أن كلمة أدب فيه كانت تعني ما تحمله في هذا العصر من معنى ، بل ان هنالك ما يشير الى أن هذه الكلمة كانت قد

عرفت في معنى ضيق جداً ، وهو الدعوة الى مأدبة ، أو وليمة .. وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد :

نحن في المشتـاة ندعو الجفــلى
لا ترى الآدب فينـا ينتقـر.

والجفلى هي الدعوة العامة ، والآدب هو الداعي ، وينتقر أي يتخير أو يختار ، وبهذا يفتخر الشاعر بأنهم كانوا يقيمون المآدب في الشتاء ، ويجعلونها عامة لكل عابر سبيل اذ أنهم لم يكونوا يختارون من يحضر الى تلك المآدب .. وهذا معنى ضيق جداً ، وبعيد كثيراً عن معنى كلمة أدب في العصر الحديث .

أما بعد ظهور الاسلام ، وفي عهد النبوة ، فقد أخذت كلمة أدب معنى تربوياً تهذيبياً ، يشير الى الاخلاق الحميدة ، يدل على ذلك ما يروى عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، وفي هذا اشارة الى أدب القرآن وأخلاق الاسلام التي تحلى بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته الأجلاء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، تلـك الأخلاق الفاضلة التي يجب على كل مسلم أن يتحلى بها .

أمـا المستشرقون فانهم يرون أن كلمة أدب أخذت مـن صيغة الجمع « آداب » وهي صيغة جمع مقلوبة لكلمة « دأب » الدالة على العادة والتعود ، وصاحب هذا الرأي هو المستشرق الايطالي « نالينو » الذي يرى أن هذه الكلمة انما عرفت في العصر الجاهلي للدلالة على سنة الآباء والأجداد وسيرتهم .

أما في العصر الأموي ، فقد اتسع المعنى التربوي التهذيبي الذي دلت عليه كلمة « أدب » في عهد النبوة ، فأصبح معنىً تربوياً تعليمياً وتهذيبياً . فقـد ظهرت في العصر الأموي شخصية « المؤدب » ، وهو المعلم أو الأستاذ ، الذي كان يختاره الخلفاء والأمراء ومن في حكمهم لتعليم أبنائهم وتهذيبهم ، وكان ذلك التعليم شاملاً لكل علوم العصر بلا استثناء .

وفي نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، كانت الدولة الاسلامية قد اتسعت كثيراً في رقعتها الجغرافية ، وتوسعت في دواوينها ، فكان من الطبيعي أن يعنى العلماء والمفكرون بتزويد رجال الحكومة وكتّابها بما يلزمهم من ثقافة وارشادات ، وقد ظهرت في تلك الفترة كتب كثيرة تحمل كلمة « أدب » في عناوينها ؛ وكان القصد منها هو تثقيف رجال الحكومة وكتّابها ومن تلك الكتب « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » لعبد الله بن المقفع ، و « أدب الكاتب » لابن قتيبة .

وقد كان العرب حتى عصور متأخرة بعد ظهور الاسلام لا يهتمون بالكتابة والتدوين ، وظلوا يتناقلون علومهم ومعارفهم ، ومعها شعرهم ونثرهم بالحفظ والرواية . وأول كتاب دوّنه العرب هو القرآن الكريم ، الذي دوّن لأول مرة في عهد الخليفة الراشدي ابي بكر الصديق بنصيحة من عمر بن الخطاب وتأييد من بقية الصحابة الأجلاء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، ثم كتب القرآن ثانية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وظلت تلك النسخة هي الوحيدة المتداولة ، وقد تم ذلك لغرض ديني محض ، مخافة أن يعتري الحفّاظ النسيان أو السهو ، فيدخل التحريف أو الاختلاف على القرآن الكريم ، كما حرفت الكتب السماوية السابقة من قبل .

وظل العرب يعتمدون على الحفظ والرواية حتّى القرن الثالث الهجري ، وعندها أحس العرب بوجوب تدوين علومهم ومعارفهم ، فكانت حركة التدوين النشطة في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وبذلك ضبطت اللغة في قواعدها وقوانينها ، مخافة أن تندثر علومها بعد تداخل العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى التي اعتنقت الاسلام مع بعضهم البعض .

ومع التّدوين ظهرت علوم مستقلة كثيرة ، بعد أن خضعت العلوم لمبدأ التخصص ، ولكن الأدب ظل يشترك مع كل تلك العلوم أحياناً ، ومع معظمها أحياناً أخرى ، في الخصائص والصفات . فقد وصف الجاحظ الأدب

بأنه الأخذ من كل علم بطرف . وقد ظل الأدب كذلك حتى مطلع العصر الحديث . وعندما وصف العلاّمة المؤرخ ابن خلدون العلوم المعروفة في عصره في مقدمة كتابه « العبر » في التاريخ ، لم يصف الأدب بأكثر مما وصفه به الجاحظ من قبل ، وأنه الأخذ من كل علم بطرف .

وفي بداية العصر الحديث ، وبالتحديد في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وبداية القرن التاسع عشر ، صحا العرب على خطر داهم هدد شخصيتهم الثقافية الاسلامية المستقلة ، وذلك عندما نزل « نابليون » في ميناء الاسكندرية بادئاً حملته الفرنسية على مصر والعرب جميعاً . وقد رأى العرب أثناء تلك الحملة ومن خلالها كثيراً من مستحدثات العصر التي لم يعرفوها من قبل ، ومنها المطابع التي استفادوا منها وبآثارها الحميدة في نشر الثقافة واحياء التراث . وقد بدأ والي مصر ، ومؤسسها في عهدها الحديث ، محمد علي رحمه الله ، في ارسال البعثات العلمية الى فرنسا لاخذ ما فيها من علوم لا تتعارض مع عقيدة الاسلام الصحيحة . وقد كان من أبرز أعضاء أول بعثة علمية عالم أزهري جليل هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان أول من وصف اوروبا الحديثة في العربية في كتاب « تخليص الابريز في تلخيص باريز » .

وقد كانت اوروبا منذ عصر النهضة فيها قد شهدت تطوراً كبيراً في فنون الأدب المختلفة ، فأخذ العرب ينقلون كثيراً من صور ذلك الأدب الى العربية، فظهرت في الأدب العربي أجناس جديدة لم تكن معروفة من قبل مثل جنس « المسرحية » ... وتطورت أجناس قديمة مثل جنس القصة ، ونقّي أسلوب الأدب من معوقات السجع والمحسنات البديعية ، واستقر الأدب على معناه ومدلوله الحديث في أنه : التعبير الجمالي الفني بالكلمات عن كل ما في الحياة والنفس البشرية من صور . وظهرت علوم كثيرة متخصصة في دراسة الأدب

مثل « تاريخ الأدب » و « النقد الأدبي » و « الأدب المقارن » .. وغير ذلك... وبهذا يمكن القول بأن الأدب منه ما هو انشائي ومنه ما هو وصفي .. أي أدب الإبداع والتعبير الفني ، وأدب الدراسة والبحث في أصول ذلك الابـــداع والتعبير الفني .

اللغة العربية :

واللغة العربية التي ندرس أدبها هي واحدة من أغنى اللغـــات الانسانية في تراثها الأدبي . ومعلوم أن علماء اللغات قد اكتشفوا في العصر الحديث وجود خصائص مشتركة تجمع بين بعض اللغات الانسانية ، وقد أمكن على هـــذا الأساس تقسيم اللغات الى مجموعات أطلق عليها اسم « العوائل اللغوية » ومن أشهر هذه العوائل : عائلة اللغات السامية ، وعائلة اللغات الهندو ـــ جرمانية .

واللغة العربية هي واحدة من لغات العائلة السامية ، التي تتفرع بدورها الى عدة فروع منها :

ا ـــ اللغات السامية الشمالية : وتشمل العربية ، والعبرية ، والسريانية ، والفينيقية التي يرجع اليها الفضل في معرفة الكتابة في كثير من اللغات المعروفة.

ب ـــ اللغات السامية الجنوبية : وتشمل الحميرية وهي لغة اليمن القديمة ، والأمهرية أي الحبشية .

ج ـــ اللغات السامية الشرقية : وتشمل الكلدانية والسومرية من لغات شرق الجزيرة العربية القديمة .

أما اللغة العربية فقد كانت في العصر الجاهلي مشتتة في لهجات محلية كثيرة ، كان الاختلاف يشتد بينها أحياناً ، الى درجة أن تحمل الكلمة الواحدة في لهجة

ما من تلك اللهجات القديمة معنىً معيناً ، وتحمل هذه الكلمة ذاتها في لهجة أخرى وفي الوقت نفسه معنى مضاداً ، وهذا ما أطلق عليه اسم « الأضداد » .

ولكنه رغم هذا الاختلاف الكبير بين اللهجات العربية القديمة ظهرت مؤشرات ودلائل كانت بمثابة الإرهاصات الدالة على ظهور لغة واحدة يمكن أن تجمع بين جميع العرب ، وهي اللغة التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى لتكون لغة قرآنه الكريم وبيانه العظيم للناس كافة .. فمن الثابت أن التاريخ لم يسجل أن العرب نظموا الشعر في غير لهجة قريش ، التي كانت تعتبر لغة التعبير الرفيع عند العرب على اختلاف لهجاتهم وديارهم وبيئاتهم ، ولعل من أهم الأسباب التي مهدت لسيادة لهجة قريش في العصر الجاهلي الأمور التالية :

ا ـ مركز مكة الديني : فقد كان للعرب في جاهليتهم كعبات كثيرة ، كانوا يحجون اليها في مواسم مختلفة ، الا أنهم كانوا يجمعون على تعظيم كعبة واحدة هي كعبة مكة التي كانوا يتوافدون للحج اليهـا من كل مكان وفي موسم واحد من السنة .

ب ـ أسواق العرب : كانت تقام أثناء موسم الحج أسواق كبرى حول مكة ، أشهرها سوق عكاظ ، وكان من بين ما يعرض في تلك الأسواق أجود ما يقوله الفصحاء من شعر ونثر ، وفي لهجة قريش التي كانت لهجة التعبير الرفيع للعرب جميعهم .

ج ـ مركز مكة التجاري : كانت مكة تعتبر مركزاً هاماً عـلى طرق القوافل التجارية بين أطراف الجزيرة المختلفة ، وكان أهل مكة يتعهدون بتوفير أسباب الحماية والأمن لكل من يمرّ بمكة أو ينزل بها ،وهذا ما جعل لسكان مكة ولهجتهم منزلة خاصة في نفوس العرب جميعهم .

كل هذا وغيره مهّد لظهور لغة عربية فصحى واحدة . وعليه فإن القرآن الكريم عندما نزل به الوحي لم يكن غريباً في لغته ، بل كان المعجزة الكبرى

في الفصاحة والبيان ، وهو الذي قضى نهائياً على كل مظاهر الاختلاف في لهجات العرب بعـــد أن وحدهم ووحد بينهم وبين كـــل مسلم في الدنيا ، فأصبحت اللغة العربية لغة عالمية كبرى بعد انتشار الاسلام في الآفاق ، وقد تركت هذه اللغة بصماتها في تأثيراتها اللغوية والأدبية في كثير من لغات الدنيا التي اتصلت بها .

الأدب العربي في العصر الجاهلي

أولاً : الشعر :

عرف العرب منذ القدم كثيراً من فنون القول الشعرية والنثرية ، بيد أن شهرتهم في الشعر هي التي فاقت حتى قيل : « الشعر ديوان العرب » ، وما ذلك إلا لأن الشعر هو السجل الحقيقي لحياة العرب ، العامة والخاصة في العصر الجاهلي ، اذ يجد الباحث في النصوص الشعرية التي وصلتنا من ذلك العصر وصفاً دقيقاً للحياة العامة : في مظاهر الطبيعة وأحوال البيئة ، كالجبال والسهول والوديان ، والأشجار والنباتات ، والحيوانات والطيور ، والسفن والبحار ، الى جانب وصف الاحداث الكبرى مثل أيام العرب وحروبهم وظروف معيشتهم في سلمهم ... أما بالنسبة للحياة الخاصة فإن الشعر العربي الجاهلي يحمل نماذج رائعة من التعبير الصادق للأحاسيس وخلجات النفوس في ظروف الحياة المختلفة ، السعيدة الهانئة ، والبائسة القاسية . وهذه الأسباب جعلت العلماء يعتمدون على الشعر العربي مصدراً هاماً من مصادر التاريخ لتلك الفترة ، وهذه ميزة يكاد ينفرد بها الشعر العربي دون غيره من أشعار الأمم الأخرى ، التي كانت تختلط فيها الأساطير الخيالية بالواقع اختلاطاً يصعب معه الاعتماد على تلك النصوص من الناحية العلمية لمعرفة بعض اسرار العصر والكشف عن أحداثه الهامة .

والشعر الجاهلي ، الذي حفظه التاريخ ، لا يرجع تاريخ أقدم نصوصه الى أكثر من مائة وخمسين سنة قبل ظهور الاسلام . وبدراسة هذه النصوص من

الناحيتين الفنية والموضوعية يتضح أنها تمثل درجة عالية رفيعة من التكامل الفني والموضوعي الأمر الذي لا يسمح باعتبار هذه النصوص ممثلة للبدايات الأولى، التي يمكن اعتبارها مرحلة الطفولة للشعر العربي .. فلا يملك الباحث ازاء هذا الواقع الا أن يفترض وجود مراحل سابقة موغلة في القدم ، لا يمكن معرفة ملامحها ، لعدم وجود نصوص تدل عليها ، والسبب الرئيسي في ذلك هو عدم اعتماد العرب في تلك العهود الخوالي على الكتابة والتدوين ، وربما لم يظهر اهتمامهم الجاد بالحفظ إلا بعد ظهور الاسلام ، فنقلوا لنا أشعار الفترة السابقة الى نحو مائة وخمسين سنة قبل الاسلام ، وكان همهم الأكبر من الحفظ والرواية هو فهم القرآن والاستدلال بشواهد الشعر القديم على تفسيره .

ومهما يكن من أمر فإن التكامل الذي يظهر في الشعر العربي الجاهلي لا يسمح باعتباره شعر البداية الأولى أو عهد الطفولة .

وأهم ما حفظه التاريخ من شعر ذلك العصر القصائد الطوال التي عرفت فيما بعد باسم « المعلقات » ، وهي تسمية متأخرة كان أول من أشار اليها في كتاب « العقد الفريد » الفقيه ابن عبد ربه الأندلسي المتوفي سنة ٣٢٨هـ. وسبب هذه التسمية هو اعتقاد بأن تلك القصائد كانت تكتب وتعلق على جدران الكعبة ، وسميت كذلك بالمذهبات اعتقاداً بأنها كانت تكتب بماء الذهب . ويتراوح عدد هذه القصائد الطوال « المعلقات » بين سبع وعشر ، والذي علق عليه أكثر الرواة أنها كما جمعها حماد الراوية وأوردها الزوزني سبع ، وهي بالترتيب : ١ – « قفا نبك .. » لامريء القيس ٢ – « لخولة اطلال.. لطرفة بن العبد ٣ – أمن أم أوفى .. »» لزهير بن أبي سلمى ٤ – « عفت الديار ... » للبيد بن ربيعة ٥ – ألا هبّي ...» لعمرو بن كلثوم ٦ – « هل غادر الشعراء من متردم » لعنترة بن شداد ٧ – آذنتنا ببينها أسماء ...» للحارث ابن حلزة .

خصائص الشعر الجاهلي :

ولعل أبرز خصائص الشعر العربي الجاهلي أنه كان من الناحية الموضوعية يعتمد على وحدة البيت وليس على وحدة الموضوع أو القصيدة ، فكل بيت كان يمثل وحدة مستقلة بما يحمله من مضمون فكري متكامل . وقد ساعد هذا في تسهيل أمر حفظ الشعر ، لأنه كان يسمح بالتقديم والتأخير والحذف في الأبيات دون أن يهدم البناء الموضوعي للقصيدة في مجموعها . وكان بإمكان الشاعر أن يتناول في القصيدة الواحدة أكثر من موضوع ، وأن ينتقل من من موضوع الى آخر بلا قيود .

أما من الناحية الفنية فقد كان الشاعر مقيداً بأمور جمالية لا يجوز الخروج عليها . فالقصيدة كانت تمثل هيكلاً موسيقياً متماسكاً ، ووحدة بنائه الأساسية الأولى التفعيلة ، ومن خلال التنسيق بين التفعيلات المختلفة يكتمل بناء الهيكل الموسيقي للقصيدة ، الذي اكتشفه فيما بعد الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأسماه « البحور الشعرية » .. ولكل بحر تنسيق ونظام معين للتفعيلات . ومن مستلزمات الموسيقى في الشعر وقيوده القافية ، التي لا بد أن تكون واحدة في نهاية كل بيت مهما طالت القصيدة .

كما يتميز الشعر العربي بالواقعية ، اذ أنه يتميز بالوصف الدقيق لمظاهر الحياة العامة والخاصة ، على عكس الشعر الاغريقي الذي كانت تختلط فيه الأساطير الخيالية بالواقع اختلاطاً يصعب معه استخلاص الحقائق المجردة .

وكان من عادة الشعراء الجاهليين أن يفتتحوا قصائدهم بالوقوف على طلل دارس أو قائم ، وكأنهم يجترون من خلال ذلك ذكرياتهم لتتداعى المعاني والصور أمام بصائرهم، وبعد المقدمة الطللية ينتقلون الى ذكر المحبوبة وصلتها بهذا الطلل وما تبعثه من ذكريات بسببه ، ثم ينتقلون بعد ذلك الى الموضوعات الأخرى بدون ترتيب لتسلسل الموضوعات . وقد اختلف في عد الموضوعات

التي نظم فيها العرب شعرهم فأبو تمام جعلها عشرة موضوعات إلاّ انها كما ذكرها كانت متداخلة ينوب بعضها عن بعض ، وقد اختصرها قدامة صاحب كتاب « نقد الشعر » فجعلها ستة موضوعات هي : ١ - المديح ، ٢ - الهجاء ٣ - النسيب ، ٤ - المراثي ، ٥ - الوصف ، ٦ - التشبيه . ثم عاد قدامة واختصر موضوعات الشعر الى اثنين فقط هما : المدح والهجاء .. فكل ما عبر عن حسنات اعتبره مديحاً ، وكل ما عُبر عن سيئات جعله في باب الهجاء . أما ابن رشيق صاحب كتاب « العمدة » فقد صنف موضوعات الشعر في تسعة ، واختصرها أبو هلال العسكري صاحب كتاب « الصناعتين » الى خمسة . وباختصار فان الشاعر العربي الجاهلي كان بإمكانه أن ينظم في أي موضوع وبحرية كاملة كانت تقام لها قيود فنية في الوزن، والقافية فقط .

نماذج من الشعر الجاهلي

المقدمة الطللية لامرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل — بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها — لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الأرآم في عرصاتها — وقيعانها كأنه حب فلفل
كأني غداة البين يوم تحملوا — لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم — يقولون لا تهلك أسىً وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة — فهل عند رسم دارس من معول

••

وصف الفرس عند امرىء القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
على الذبل جياش كأن اهتزامه اذا جاش فيه حميه غلي مرجل
مسح اذا ما السابحات على الونى أثرن غباراً بالكديد المركل
يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل
درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
كأن على المتنين منه اذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل

• •

وصف الناقة لطرفة بن العبد :

واني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الأران نصأتها على لاحب كأنه ظهر برجد
جمالية وجناء تردى كأنها سفنجة تبرى لأذعر أربد
تباري عتاقاً ناجيات واتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد
تربعت القفين في الشول ترتعي حدائق مولي الأسرّة أغيد
لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرّد
صهابية العثنون موجدة القرا بعيدة وخد الرجل موّارة اليد

• •

العتاب والتعبير الوجداني عند طرفة بن العبد :

فمالي أراني وابن عمّي مالكاً — متى أدن منه ينأ عني ويبعد
يلوم وما أدري علام يلومني — كما لامني في الحي قرط بن أعبد
وأيأسني من كل خير طلبته — كأنّا وضعناه الى رمس ملحد
على شيء قلته غير أنني — نشدت فلم أغفل حمولة معبد
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة — على المرء من وقع الحسام المهند

• •

وبدراسة هذه النماذج المختارة من شعر العصر الجاهلي تتضح صورة ما سبق أن ذكرناه من خصائص هذا الشعر . فإلى جانب الكمال الفني في بناء هذا الشعر الموسيقي ، من حيث التنعيلة والبحر والقافية ، نجد هذا الشعر يعبر عن طبيعة الحياة العربية ، ويصف خلجات نفس الانسان العربي القديم ، ويعطينا نماذج صادقة من تفكيره .

فالمقدمة الطللية لامرىء القيس ، هي كأي مقدمة طللية جاهلية أخرى ، بمثابة شرارة يشعلها الشاعر في مقدمة قصيدته ، لتنير أمامه شريط الذكريات الطويل ، الذي يستلهم من وحيه بقية ذكرياته وموضوعاته حيث تتداعى معانيها أمامه . وهو يطلب من صاحبيه ان يقفا معه عند أثر ذلك الطلل الذي يكتسب أهميته من خلال ارتباطه بذكرى المحبوبة ومنزلها . وبعد أن يبين أهمية ذلك الطلل يحدد مكانه بالضبط من جهاته الأربع فيقول انه : « بسقط اللوى » أي بالمكان المتعرج من الرمل بين أماكن معروفة بعالية نجد هي حسب ترتيبها : ١ – الدخول ، — حومل ، ٣ – توضح ، و٤ – المقراة » ... ويؤكد امرؤ القيس أنه رغم تقادم العهد وتعاقب الرياح الجنوبية والشمالية في نسج طبقات من الغبار والأتربة على ذلك المكان ، فإنه يراه بعين المحب الوله

واضحاً ، ويشير الى بعض الآثار الباقية فيه مثل مخلفات الغزلان والظباء « بعر الأرآم » ثم شبه ذلك البعر المتناثر في الساحات المنبسطة « العرصات » والاماكن الغائرة أو الحفر « القيعان » بحبات الفلفل الاسود ، ثم وصف الشاعر حاله لحظة رحيل محبوبته وأشار الى تلك اللحظة بقوله : « غداة البين » أي لحظة الفراق والهجر يوم حمل القوم متاعهم للرحيل « يوم تحملوا » ، وقال انه كان في تلك اللحظة يشبه من يقف تحت شجرات باسقات تعرف باسم « سمرات » « لا يدري ما يفعل من الهم والغم فكان يفلق حبات الحنظل بدون سبب « ناقف حنظل » .. ووقف أصحابه على رواحلهم يطلبون منه ان يتجمل بالصبر ولا يهلك من شدة الأسى .. ثم يقرر في نهاية هذه المقدمة الطللية انه يعرف عدم جدوى البكاء عند الاطلال ويقرر ذلك في سؤال انكاري حين يقول : « فهل عند رسم دارس من معول ؟ » ويؤكد ان الدموع المراقة ما هي الا للتخفيف من عذاب الفراق .

وفي هذه المقدمة كما في وصف الفرس لامرىء القيس ، ثم في عتاب طرفة لابن عمه ؛ وقبل ذلك في وصف طرفة بن العبد لناقته نجد صور الطبيعة العربية والحياة وما فيها في التشبيهات والأوصاف ، وكل ذلك يؤكد أهمية الشعر الجاهلي في التعرف على تاريخ تلك الفترة في حياة العرب .

أما في وصف الفرس ، الذي جاء في معلقة امرىء القيس كذلك ، فإن الشاعر يستعين بالطيور وبقية حيوانات البيئة المعروفة ، كما يستعين بمظاهر الطبيعة المختلفة ، كنزول الصخر من الجبال بفعل السيول .. من أجل تحقيق ما يريد في وصف فرسه وصفاً فريداً يليق به . فهو يخبر مفتخراً : بأنه كان يخرج للصيد في الصباح الباكر حيث تكون الطيور مستكنة هادئة في أعشاشها « وكناتها » .. وان خروجه يكون على ظهر فرسه قصير الشعر « منجرد » ؛ الذي يبدو لشدة سرعته كأنه مقيد بالوحوش التي يلاحقها وهو ضخم ضخامة الهيكل « قيد الأوابد هيكل » .. كما يخبر أن ذلك الفرس قصير الشعر أشهب

اللون في حمرة مشوبة بسواد « كميت » ينزل الشعر « اللبد » عن ظهره لشدة عرقه كما تنزل الحجارة الملساء من سفوح الجبال .. وقبل هـذا يقول : إن الفرس في شدة سرعته لا يكاد يتضح اتجاهه ، هل هو « مقبل » أم « مدبر » فهو كالصخر الذي يهوي بسرعة من أعالي الجبال عندما يجرفه السيل العظيم . وهو من شدة ما يبذله من جهد له صوت يشبه صوت الماء الذي يغلي وهو يتصاعد من القدر الكبير « المرجل » .. وهو في سرعته وجريه تختلط خطواته « مسح » بينما يركل بحوافره الأرض الصلبة فيثير بركلها الغبار .

وفي غمرة وصف الفرس ينتهز امرؤ القيس الفرصة ليفخر بنفسه حين يؤكد أنه لا الطفل الصغير أو الصبي ، ولا الرجل الثقيل العنيف يستطيعان التحكم في هذا الفرس ، لأن الصغير « الخف » يزل .. أي يهوي .. عن صهوته ، أما « العنيف المثقل » فإنه « يلوي » بأثوابه .. فالشاعر يؤكد أنه هو وحده الفارس الذي يتحكم بذلك الفرس العظيم الذي يصفه . ويشير امرؤ القيس إلى لعبة من لعب الأطفال التي كانت معروفة في عصره وهي خشبة صغيرة تعرف باسم « الخذروف » ، بها ثقبان يمرر الطفل من خلالهما خيطاً فيدور ذلك « الخذروف » بسرعة هي التي يشبه فرسه في سرعته بها .

وبعد وصف الفرس في سرعته وفي مقدرته على الجري والتحمل ينتقل امرؤ القيس الى وصف جسد الفرس فيقول ان فخذيه « أيطليه » يشبهان فخذي ظبي (غزال) أما ساقاه فانهما في طولهما يشبهان ساقي نعامة . أما ارخاؤه فهو ارخاء (سرحان) أي ذئب ، وتقريبه ... أي توثبه.. فهو تقريب (تتفل) أي ثعلب . ويشبه كتفي الفرس في عرضهما « بمداك العروس » و(صلاية الحنظل) أي الحجر العريض الذي كان يسحق عليه الحنظل،أو يدك عليه ما يقدم للعروس من حناء وخلافه . وهكذا فعل طرفة وهو يصف ناقته في معلقته ، مفتخراً بها وبما يقدمه حسن بناء جسدها من أمان فهي « أمون » لا خوف من ركوبها ، بل انه كان ينفض الهم عن نفسه بركوبها .. وهي سريعة

الجري مثل فرس امرىء القيس . وطرفة بن العبد كان من بيئة البحرين في جزيرة العرب ، لهذا نجده قد استعمل كثيراً مـــن المصطلحات البحرية في شعره .. مثل السفن ، والألواح . كما استعان بمظاهر الطبيعة الأخرى وكل ما في البيئة لتوضيح صوره الشعرية .

ويذكر الرواة أن خلافاً شديداً نشب بين طرفة وابن عمه مالك وقد ابتعد طرفة بسبب ذلك الخلاف عن أهله وعشيرتـــه ، وسبب هذا له أزمة نفسية وجرحاً عميقاً صوره في شعره في لوعة مؤثرة .

ثانياً : النثر :

كما عرف العرب الشعر وأجادوا فيه في العصر الجاهلي فانهم عرفوا كذلك النثر في كثير من أجناسه وصوره وأجادوا فيه أيضاً .

وأهم الأجناس النثرية التي عرفها العرب في العصر الجاهلي هي :

١ ــ الخطابة

٢ ــ الأمثال والحكم

٣ ــ سجع الكهان

أما الخطابة فهي معروفة ، وهي قطع نثرية بالغة الأهمية من حيث اثارة الشعور وتوجيه الناس وبث بعض الأفكار بينهم . ولا تخلو منها لغة من لغات العالم ، ومنها ما له طابع ديني أو سياسي أو اجتماعي .. أو ما الى ذلك مـــن مجالات هامة . وقد عرفت الخطابة في العصر الجاهلي في صورة عظيمة مـــن البلاغة والدقة في التعبير والايجاز الواضح في البيان .

أما الأمثال والحكم فهي جمل قصيرة يتداولها الناس ولا يعرفون في معظم الأحيان قائلها ولكنهم يهتمون بما تحمله من معاني كبيرة فيها خلاصة التجربة

وعصارة المعرفة والحنكة .

والمثل يقصد به تشبيه انسان ما ، أو امر معين ، أو حادثة بما يماثل ذلك عبارة قصيرة بليغة فيها خلاصة تجربة . والحكمة تحمل جملاً قصيرة فيها عصارة تجربة بدون تمثيل أو تشبيه .. وقد تكون نثراً خالصاً وقد تكون بيتاً من الشعر ، أو نصف بيت .

وأما سجع الكهان فانه الكلام الذي كان يصدر عن رجال الدين والذي كانوا يمعنون في تنميقه حتى يكتسب هالة توحي بالقدسية في سجع مصطنع يوهم الناس ويدخل الروع في قلوبهم .

خصائص النثر الجاهلي :

ويمكن تلخيص أبرز خصائص النثر في العصر الجاهلي في النقاط التالية :

١ ـ اعتماده على الجمل القصيرة التي تحمل رغم قصرها معاني كبيرة، ومدلولات فكرية متكاملة ، وهي تمثل عناصر الموضوع ؛ كما نقول بلغة العصر الحديث .

٢ ـ كل جملة قصيرة لها معنى مستقل ، ولكن جميع تلك الجمل بكامل معانيها تصب في فكرة أساسية واحدة . أي أن النثر الجاهلي كان يعتمد على وحدة الموضوع على عكس الشعر الجاهلي الذي اعتمد على وحدة البيت .

٣ ـ تكرار المعاني ومقابلتها بضدها للتأكيد عليها .

٤ ـ اعتماد النثر على الجرس الأخير للكلمات والتنسيق بين مخارج الحروف في اشاعة جو شبيه بالموسيقى في النثر ، ولكنها ليست موسيقى كاملة البناء كما هي الحال في الشعر .

٥ ـ اعتماد الخطيب على براعة الاستهلال أي حسن الافتتاح لشد المستمع الى الخطيب والاستحواذ على اهتمامه الكامل .

٦ ـ استعمال الأمور المعروفة في البيئة والطبيعة للاستشهاد والتشبيه .

نموذج من النثر الجاهلي :

ومن أشهر خطباء العرب في الجاهلية قس بن ساعدة الأيادي المتوفي نحو سنة ٦٠٠ م وهو رجل دين نصراني من بني إياد في نجران بجنوب جزيــرة العرب . وكان يحضر سوق عكاظ ويخطب فيها ، ويروى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قــد عاصره قبل بعثته ، واستمع اليه وهو يخطب في عكاظ فأعجب بكلامه وأثنى عليه ودعا له ومن أشهر خطبه ...

قال قس بن ساعدة الأيادي :

« أيها الناس ! اسمعوا وعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، ونهار ساج وسماء ذات أبراج ؛ ونجــوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة . ان في السماء لخبراً ، وان في الأرض لعبراً . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ يا معشر أياد أين الآباء والأجداد ، وأين ، الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول آجالاً ؟ طحنهم الدهر بكلكله ، ومزقهم بتطاوله » .

• • •

وبدراسة هذا النص النثري من خطبة قس بن ساعدة الأيادي تتضح أمامنا صورة ما ذكرناه من خصائص النثر في العصر الجاهلي . فهذا النص خطبة ، وقد قلنا ان الخطيب كان يعتمد على براعة الاستهلال وحسن الافتتاح . وقس يفتتح خطبته هذه بنداءات متكررة تثير اهتمام كل من يستمع اليه لاستجلاء ما وراء نداءاته المتكررة ، كذلك من حيث البناء الموضوعي ، فان هــذه الخطبة تحمل بوضوح فكرة أساسية واحدة هي قضية « التوحيد » ويصــل الخطيب الى هذه الفكرة من خلال جمل قصيرة كاملة المعنى في أفكار

ثانوية تصل في النهاية الى الفكرة الرئيسية . فهو يعبر عن الحياة والموت وان كل شيء الى زوال ، وأن الباقي وحده بعد كـــل شيء هو خالق كل شيء سبحانه . وليس هذا بمستغرب ، فقس رجل دين كتابي وكل الأديان السماوية الصحيحة قبل تحريفها هي من عند الله وتدعو الى توحيده سبحانه . والجمل قصيرة جداً ولكنها رغم قصرها تحمل مدلولات فكرية كاملة المعنى . وهنالك تكرار في المعاني ومقابلة لها بضدها مثل « من عاش مات ومن مات فات » وذلك يؤكد هذه المعاني ولا شك . وهنالك تنسيق بديع بين مخارج الحروف وذلك يشيع ما يشبه الموسيقى في الخطبة ، التي تبدأ بالاعتماد على الحروف الحلقية « العين » ثم تتدرج الى غيرها وهكذا في تنسيق وتنظيم جميلين . أما الصور والتشبيهات والأدلة فكلها من بيئة العربي كالليل والنهار ، والنجوم والبحار .. وبقية تلك الأشياء المعروفة في حياة العربي والتي يسهل عليه فهم الاستدلال بها على حقيقة الفناء والبقاء .. ثم التوحيد . ولا بد هنا من التركيز على تلك الميزة الفريدة للغة العربية المتمثلة في الجمل القصيرة كاملة المعنى والتي قل أن يوجد مثلها في غير العربية ، وهذا دليل على ما تتمتع به العربية من قوة في التعبير الفكري اذا كان من يستخدمها متمكناً منها .

الأدب العربي في صدر الإسلام

الأدب في ظل الاسلام :

شرف الله سبحانه وتعالى العرب بأن اصطفى سيد أبنائهم ، ليكون خاتم أنبيائه وسيد رسله الى خلقه أجمعين . وشرف الله سبحانه نبيه المصطفى محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم بأن اصطفى لغته العربية ، لتكون لغة قرآنه المجيد وبيانه العظيم للناس كافة فكانت تلك هي بداية العالمية الواسعة التي تحققت لأدب اللغة العربية فيما بعد .

أنزل الله سبحانه قرآنه المجيد وحياً على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء هذا القرآن معجزة لا مثيل لها ، ولن يكون لها مثيل أبداً ، في الفصاحة والبيان . فاهتزت جنبات الجزيرة العربية كلها لهذا الحدث الجلل ، ووقف كل فصحاء العرب في خشوع أمام هذا القرآن ، سواء في ذلك منهم من أنكر وكابر وجادل ، ومن هداه الله فصدق وآمن . الكل أجمعوا على عظمة هذا البيان ، الذي جاء به الرسول الأمّي الأمين من عند ربه عز وجل . فكان القرآن وسيظل دائماً أبداً أعظم ثروة أدبية يتشرف الأدب الاسلامي بها .. الى جانب أهمية هذا الكتاب من الناحية التشريعية الدينية .

والى جانب القرآن الكريم وبعده مباشرة في الترتيب يأتي حديث الرسول المصطفى وما فيه من بلاغة النبوة الشريفة وحسن التعبير الملهم الذي يدعمه الوحي ويؤيده . ثم يأتي بعد ذلك كلام الصحابة الأجلاء من الخلفاء الراشدين ومن في حكمهم من خطباء ورواة من عهد النبوة .

أما بقية الكلام وفنون القول الشعرية والنثرية فقد أحدث فيها الاسلام بمبادئه السامية أعظم تغيير ، خصوصاً من الناحية الموضوعية . اذ اختفت العصبية التي حرّمها الاسلام بعد أن آخى بين المسلمين في محبة الله ورسوله وجعل التقوى أساس التفاضل. واختفى الهجاء المقذع بعد أن حرم الاسلام قول الزور وباطل القول . واختفى شعر المجون والتحلل بعد ان حرم الاسلام الفسق والفجور ، فأصبح الأدب في عهـــد النبوة صورة من صور العفاف والطهر في التعبير الجميل .

ويمكن حصر الآثار الأدبية العربية في عهد النبوة في المصادر التالية :

١ ـ القرآن الكريم : وهو وحي الله المنزّل ، ومعجزة الرسول محمـــد صلى الله عليه وسلم ، ومعجزة اللغة العربية الكبرى ، وهو أهم أثر أدبي في هذه اللغة على الاطلاق من الناحيتين الدينية والأدبية .

٢ ـ الحديث النبوي الشريف : وهو ما أُثر من أقوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما وصف من أفعاله ، ويضاف اليه أقوال صحابته الأجلاء لأنهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كانوا شديدي التأثر به في كل شيء... وقد ظل الحديث يحفظ في الصدور ويتناقله الرواة ، حتى القرن الثاني الهجري ، حيث اهتم المسلمون بعلـــم الحديث فدونوه ، وميزوا بين الصحيح منـــه والموضوع ، وأشهر علماء الحديث القدامى الإمام مالك صاحب كتاب « الموطأ » وأهم كتب الحديث ستة كتب في مقدمتها صحيح البخاري وصحيح مسلم ، وللحديث قواعد ومناهج علمية دقيقة أسهمت بأوفر نصيب في تقدم العلوم والأدب عند المسلمين على مر العصور .

٣ ـ الخطابة : وفي مقدمة خطباء تلك الفترة الهامة في تاريخ الاسلام الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ثم خلفاؤه الراشدون ، وبقية الخطباء من الصحابة الأجلاء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

٤ ـ الشعر : وأهم شعراء عهد النبوة من المسلمين حسان بن ثابت الأنصاري ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن زهير ، وأبو ذؤيب الهذلي، والنابغة الجعدي .. وهؤلاء كانوا ينظمون الشعر في الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم والاشادة بالاسلام وتبيان محاسنه ، ويمكن أن نطلق عليهم اسم شعراء الطبقة الأولى في شعر الدعوة .

••

نماذج من الأَدب في عهد النبوة

اولاً : النثر :

ا ـ من الحديث الشريف :

« ان مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » رواه احمد عن انس بن مالك .

ومعلوم أن الاسلام أعلن منذ نزول أولى كلمات الوحي الكريم دعوة الناس الى العلم والأخذ بأسبابه ، فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم » كما جاء عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الذي رواه ابن ماجه ، والرسول يدعو الى العلم لأنه تلقى وحي ربه أول ما تلقاه وهو يحث على العلم حيث يقول تعالى : « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . علم الانسان ما م يعلم » .. فجعل الاسلام العلم ليس مجرد حق مباح للناس كافة ، بل واجباً عليهم ، وبذلك سبق الاسلام كل دعوات الحضارة الانسانية الحديثة . وتشبيه الرسول العلماء بالنجوم المضيئة في الظلمات تشبيه دقيق ورائع جميل

في وقت واحد . دقيق لأن العلماء يسهمون بما يهتدون اليه في اخراج الناس من ظلمات الجهل الى انوار العلم ، ورائع جميل لأن هذه صورة أدبية لا تصدر الا عن ملهم ، فقد بيّن الرسول بهذه الصورة الرائعة فضل العلماء، وأهمية العلم ، ووضع تعريفاً له بأنه النور المضيء ، كما بيّن عواقب الجهل ووضع مفهوماً له بأنه ظلمات الحياة في البر والبحر على السواء . وهذه مقدرة بلاغية عظيمة أن يوضع تعريف لمفهومين وبيان لكل منهما في صورة أدبية واحدة جد موجزة .

ب — من الخطابة :

من خطبة للامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال :

(أما بعد ، فان الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، حين خلقهم ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه . فقسم بينهم معايشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم . فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع . غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم . نزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء . ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقاً الى الثواب وخوفاً من العقاب . عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها ، فهم فيها معذبون . قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها) .

وبدراسة هذه الخطبة يمكن أن نخلص الى النتائج التالية من حيث الشكل والمضمون :

أولاً — من ناحية الشكل : يتجلى في هذه القطعة الاسلوب الواضح ، القائم على الجمل القصيرة التي تحمل دلالات فكرية كبيرة ، والتشبيهات المستمدة من مبادىء الاسلام وصور الحياة المألوفة حتى يسهل الاقناع بما تحمله من أفكار .

كذلك فإن دقة التعبير فيما يشبه التقنين من الأمور الهامة التي تميز هذه الخطبة ، وخطب هذه الفترة بصفة عامة .. لأنها خطب دعوة تفسر مبادىء الإسلام . فالإمام علي كرم الله وجهه يضع تعريفات دقيقة « لأهل الفضائل » من حيث « منطقهم » وهو كما يقول « الصواب » ، ومن حيث « ملبسهم » وهو « الإقتصاد » ومن حيث « مشيهم » وهو « التواضع » ... وهكذا ... وكل هذه أمور تقنينية وتعريفات واضحة دقيقة مستوحاة من القرآن ، والحديث ، وهذه من أهم خصائص اسلوب الخطابة في هذا العهد .

كذلك ففي هذه الخطبة أسلوب توجيه غير مباشر في الإرشاد الى صفات « أهل الفضائل » وهم المؤمنون بلا شك ، وهذا أسلوب من أساليب الدعوة الى الله « بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ثانياً — من ناحية الموضوع : نجد أن هذه الخطبة تعتمد على وحدة موضوعية يتم بناؤها من خلال عناصر وأفكار ثانوية يخدم بعضها بعضاً . فالفكرة الأساسية ، وهي وحدة الموضوع في هذه الخطبة ، هي صفة « المتقين » وهم « أهل الفضائل » أما الوصول الى تحقيق هذه الوحدة الموضوعية فيتم من خلال جمل قصيرة متتابعة تعبر عن أجزاء الموضوع وعناصره الهامة ، فتصف « المتقين » من زوايا مختلفة ، وتبين أن الدنيا أيامها معدودة مهما طالت وهذا هو إيمان المتقين الذين اشتروا الآخرة فربحت تجارتهم .

• •

ثانياً : الشعر :

جاء وفد من بني تميم الى المدينة المنورة وكان فيهم الزبرقان بن بدر ، ورفعوا أصواتهم في خشونة لا تليق يدعون النبي صلوات الله وسلامه عليه ليخرج فيفاخرهم وليفاخروه هم أيضاً على عادة العرب في الجاهلية .. فوقف حسان بن ثابت رضي الله عنه يدافع عن الرسول الكريم وأوائل المسلمين من المهاجرين والأنصار ، فقال :

إن الذوائب من فهر واخوتهم	قد بينوا سنناً للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم	أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة	ان الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم	عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ان كان في الناس سباقون بعدهم	فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم	لا يطمعون ولا يزري بهم طمع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم	وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

• •

وبدراسة هذا النص ، ودراسة أي نص شعري آخر من الشعر العربي الإسلامي في عهد النبوة يتضح :

أولاً : من ناحية الشكل : ١ ـ ظل الشعر العربي محتفظاً بقواعد بنائه القديمة في النظم القائم على وحدة التفعيلة التي ينتج منها الهيكل الذي اكتشفه الخليل فيما بعد وأسماه « البحور » ، ٢ ـ اكتسب الشعر الاسلامي رقة في التعبير بعد أن عمر الايمان قلوب الشعراء ، ٣ ـ قلة المفردات الغريبة ، ٤ ـ

التأثر بالقرآن الكريم والحديث التريف في التشبيهات والإستعارات وأساليب البيان الاخرى ، ٥ – ظهور ما يشبه الوحدة الموضوعية من خلال ارتباط الشاعر بفكرة الإيمان والدفاع عن الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، ولكنها ليست وحدة موضوعية كاملة ، إذ لا زالت الأبيات المنفردة تتمتع باستقلال موضوعي في اطار القصيدة .

ثانياً : من ناحية الموضوع : مهما استقلت الأبيات بأفكار وموضوعات خاصة فان كلاً منها يعبر عن موضوع واحد ، هو موضوع الساعة آنذاك ، موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة النـــاس وأسلوب معاشهم وكلامهم . فالشاعر يدافع عن الرسول ومن آمن به من أوائل المسلمين الذين أسماهم بالذوائب « جمع ذؤابة » وهي خصلة الشعر التي تكون من منبت الناصية من الرأس ، أي المقدمة .. و « فهر » اسم من أسماء قريش.. إشارة الى المهاجرين ، واخوتهم وهم الأنصار ، وفي هذا اشارة الى مؤاخاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بين المهاجرين والأنصار ، وهي أخوة الاسلام التي تجمع بين كل المسلمين .

ويذكر الشاعر أن أوائل المسلمين أولئك كانوا القدوة والمثال الذي يتبع ثم عدّد محاسنهم في الحرب والسلم .

وحسان بن ثابت الأنصاري ، رضي الله عنه ، شاعر مخضرم ، أي أنه قد عاش فترة في الجاهلية كما عاش في الاسلام ، ونظم الشعر في العهدين . وهو شاعر فحل في العهدين اتصل في الجاهلية بالغساسنة ملوك الشام ومدحهم ، كما اتصل كذلك بملوك الحيرة . ونظم في كل موضوعات الشعر الجاهلي ، ولكنه منذ إسلامه التزم بمبادىء الاسلام ، فابتعد عن المحرمات كوصف الخمر والتعرض لأعراض الناس . وكان ملازماً للرسول حتى لقب بشاعر الرسول . ومـــن ناحية الأسلوب والأداء الفني فإن شعره في الجاهلية تميـــز

بالتضخيم والتعظيم واشتمل على الألفاظ الصعبة .. أما بعد الإسلام فان شعر حسان تميز برقة منبعها الايمان ، مع شدة على المشركين والكفار في الوقت نفسه .. ويبدو حسان في شعره متأثراً بالقرآن الكريم وأسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم . ويعتبر شعر حسان في الاسلام من عيون ما جاء في شعر الدعوة . وحسان من المعمرين فقد عاش نحو مائة وخمسين سنة .. كما يقال .

الأدب العربي في العصر الأموي

تمهيـد :

قامت الدولة الأموية على يد مؤسسها الأول معاوية بن أبي سفيان الذي نقل عاصمة الخلافة الى دمشق في بلاد الشام . وقد تميز هـذا العصر ببعض الأمور الهامة : سياسياً ، ودينياً ، واجتماعياً . وكان لها تأثيرها البعيد المدى في الأدب العربي في هذا العهد ، وما تلاه من عصور .

ويمكن تلخيص أهم المتغيرات التي حدثت في العصر الأموي وانعكست آثارها على الأدب في النقاط التالية :

١ ـ تغيير نظام الحكم من الخلافة القائمة على الشورى الى النظام الملكي الوراثي .

٢ ـ اهتمام خلفاء بني أمية بمظاهر الأبهة ، وبناء القصور ، وقد ساعد هذا على ظهور فن العمارة عند المسلمين .

٣ ـ كان لانتقال أمر الخلافة الى معاوية ، ثم ما أعقب ذلك من تغيير في نظام الحكم ، أثره في ظهور الاختلافات الحادة في الرأي على الصعيد الديني ، من حيث تفسير مبدأ الامامة ومن هو الأحق به ، ثم الاختلاف في الرأي على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، فظهرت الفرق المختلفة مما ساعد على ظهور مذاهب الجدل وقد أخذ العرب في هذا الشيء الكثير عن الاغريق وفلسفتهم.

٤ ـ كان اتساع الرقعة الجغرافية للدولة الاسلامية سبباً في اضطرار سكان

المدن والبوادي والقبائل الى ارسال وفود عنهم الى عاصمة الخلافة في دمشق لعرض مشاكلهم ، وطلب المساعدة ، أو تقديم التعهدات بالولاء . وكـــان يتقدم هذه الوفود الخطباء والشعراء ممـــا ساعد على ظهور مواضيع جديدة وأساليب لم تكن معروفة من قبل في العرض الشعري والخطابي .

٥ ـ جلب العرب الفاتحون كثيراً من الموالي من غير العرب الى الحواضر العربية ، مثل مكة ، والمدينة ، وأدخل هؤلاء الموالي الغناء بأساليب جديدة الى الشعر العربي .

٦ ـ انعكست الخلافات الحادة في الرأي والتعصب القبلي والمذهبي عـــلى الشعر ، حيث كان الشعراء يتبادلون قذائف شعرية بينهم عرفت باسم النقائض ، وهي أهم ما سجل من شعر عربي في ذلك العهد .

ويمكن حصر الأجناس الأدبية الهامة في العصر الأموي في الأجناس التالية :

(١) النثر :

أ ـ الخطابة : وهي امتداد للخطابة في عهد النبوّة والعصر الجاهلي من حيث طريقة العرض ، مع اختلاف كبير في الأغراض ، وجنوح الى التغيير في الأسلوب وطريقة العرض بصورة تدريجية .. وكان لاتصال العرب بغيرهم من الأمم أثره الواضح في هذا التغيير التدريجي . وقد استعملت الخطابة في كل الاغراض الدينية .. والسياسية .. والاجتماعية . ومن أشهر خطباء العصر : معاوية ، وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفي .

ب ـ المواعظ والقصص الديني : وهي قطع نثرية قد تكون في صورة خطب ، وقد تكون قصصاً من حياة الأمم القديمة يلقيها الوعاظ في أروقة المساجد من أجل تبصير الناس بأمور دينهم ودنياهم وهـــدايتهم الى سواء السبيل .. ومن أشهر وعاظ ذلك العهد : الحسن البصري .

ج ـ توقيعات الخلفاء والأمراء والرسائل: التي يعتبر عبد الحميد بن يحيى، الملقب باسم عبد الحميد الكاتب أشهر من أبدعوا فيها . ويعتبره كثير من مؤرخي الأدب مؤسس فن الرسائل في الأدب العربي وقد نقل عبد الحميد في هذا المجال الكثير من الفارسية الى العربية .

(٢) الشعر :

ازدهر الشعر العربي في العصر الأموي ازدهاراً عظيماً ، وقد أذكى الخلاف في الرأي والعصبية روح الشعر ، فتبارى الشعراء في تمجيد ما ينتمون اليه أو يفخرون به ... أما المظهر العام للشعر فقد كان امتداداً لأسلوب القدماء .. والجديد هو الموضوعات التي خاض فيها الشعراء بنظمهم .. وأهمها موضوع النقائض ، الذي تكاد تظهر فيه وحدة الموضوع في كثير من الأحيان وهو أمر لم يكن معروفاً من قبل . ويمكن تقسيم أهم ما جد من الموضوعات الشعرية في العصر الأموي الى :

أ ـ شعر النقائض : والنقائض جمع « نقيضة » وهي ما ينقض به ، أي ما يهدم به شاعر ما بناه آخر . وكان الشعراء المتناقضون يتّربص بعضهم ببعض .. وقد تبادل شعراء ذلك العصر في شعر النقائض السباب على نحو لم يعرف من قبل ، وكان أهم شعراء النقائض وأشهرهم ثلاثة ، هم : جرير، والفرزدق والأخطل . ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء ، أحصى منهم صاحب الأغاني تسعة عشر شاعراً معروفاً .. وقد كانت لهذا الشعر شعبية، كبرى اذ انشغل الناس به وتحزّب لكل واحد من شعراء النقائض جمهرة من الناس . ولم تكن العداوة وحدها هي الدافع الى الهجاء والمناقضة في كل الأحيان . فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهارة الفنية ويهدف الى السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة . وكانت مهارة الشاعر تتركز في ادراكه لوجه النقص البارز في خصمه ، وقدرته على التفنن والتصرف

في استخراج مختلف الصور وألوان الدعابة الساخرة منه . كان الجانب الأكبر من النقائض منافسة أدبية ، ولذلك حرص الشاعر حين يجيب على نقيضة خصمه أن تكون اجابته من نفس البحر والروي ، حتى يمكن ان تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر .

وليست النقائض هجاء خالصاً ، فهي خليط من فنون الشعر التي عرفها الأدب العربي في ذلك الحين ، فيها فخر .. وفيها مديح .. وفيها نسيب .. وفيها وصف للبادية ونباتاتها وحيواناتها .. فالنقائض تجمع على هذا بين وحدة البيت المستقل بمعناه ، وهو ما عرف في الشعر العربي منذ القدم ، وبين ما يشبه وحدة الموضوع ، من حيث أن كل نقيضة تقوم على موضوع الرد على ما يثيره الخصم من أجل هدمه ونقضه .

ب ـ الشعر السياسي : كان الشعراء يتقربون من الخلفاء والأمراء وولاة الأمر بشعر يمتدحونهم فيه .. مشيدين بأسلوب حكمهم .. متعرضين لأعدائهم ، وكان الخلفاء يغدقون على الشعراء .. حتى ازدهر هذا الفن ازدهاراً كبيراً من جراء ذلك .

ج ـ الشعر الديني : وهو شعر الدعوة والدفاع عن الاسلام ويدخل في إطاره ما كان يتبادله شعراء الفرق المختلفة تعبيراً عن مواقفهم الدينية .

وفيما عدا ذلك فان الموضوعات التقليدية القديمة : كالمديح ، والهجاء ، والنسيب ، والوصف .. وما الى ذلك .. ظل متداولاً بين الشعراء وان اخذت المقدمة الطللية في الاختفاء تدريجياً في هذا العصر .

نماذج أدبية من العصر الاموي

أولاً : النثر :

أ ــ قال الحسن البصري في الوعظ :

« يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا ابن آدم اذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، واذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثّواء ها هنا قليل والبقاء هناك طويل . أمّا انّه ــ والله ــ لا أمّة بعد أمتكم ولا نبيّ بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وانّما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فانها عمّا قليل قبرك ، واعلم انك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . » .

ب ــ وفي أدب الرسائل : كتب عبد الحميد بن يحيى الى أهله يرثي نفسه بعد أن رأى هزيمته مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فقال :

« أما بعد فان الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درّت له بحلاوتها ، وساعده الحظ فيها سكن اليها ، ورضي بها ، وأقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعضته بأنيابها ، وتوطأته بثقلها ، قلاها نافراً عنها ، وذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها ، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درّها أفاويق استحلبناها ، ثم شمست منّا نافرة ، وأعرضت عنّا متنكرة ، ورمحتنا مولية ، فملح عذبها

وأمرّ حلوها ، وخشن لينها ، ففرّقتنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الاخوان ، فدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة ، قد أخذت كل ما أعطت ، وتباعدت مثلما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصباً ، وبالجذل همّاً ، وبالأمن خوفاً ، وبالعز ذلاً ، وبالجدة حاجة ، وبالسراء ضرّاء ، وبالحياة موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحباء » .

ثانياً : الشعر :

١ – الفرزدق :

كان الشاعر الفرزدق من أشهر شعراء النقائض ، وأكثرهم سباباً ، ولكنه بعد أن بلغ السبعين من عمره ندم على كل ذلك الماضي الذي كان في النقائض ، وعاهد ربه على التوبة ، ولعن ابليس الذي كان سبب غوايته .. وقد قال في ذلك قصيدة طويلة يحكى أن سببها هو أنه دخل المربد يوماً فلقي رجلاً من موالي باهلة يقال له (حمام) ومعه نحي من سمن يبيعه فسامه الفرزدق فقال له (حمام) هولك ان أقلعت عن التعرض لأعراض قومي .. فنظم الفرزدق قصيدة طويلة في ذلك .. قال فيها :

ألم ترني عاهدت ربّي ، وانّني	لبين رتاج ، قائم ، ومقـام
علي قسم لا أشتم الدهر مسلماً	ولا خارجاً من فيّ سوء كلام
ألم ترني والشعر أصبح بيننـا	دروء من الاسلام ذات حوام
بهن شفى الرحمن صدري وقد جلا	عشا بصري منهنّ ضوء ظلام
فأصبحت أسعى في فكاك قلادة	رهينة أوزار عليّ عظـام
أحاذر أن أدعي وحوضي محلّق	اذا كان يوم الورد يوم خصام

ولم أنته حتى أحاطت خطيئتي ... ورائي ودقت للدهور عظامي
لعمري لنعم النّحي كان لقومه ... عشيّة غبّ البيع نحّى حمام
بتوبة عبد قد أناب فؤاده ... وما كان يعطي الناس غير ظلام
أطعتك يا ابليس سبعين حجة ... فلما انتهى شيبي ، وتم تمامي
فررت الى ربّي وأيقنت أنّني ... ملاق لأيـــام المنون حمامي
ولما دنا رأس التي كنت خائفاً ... وكنت أرى فيها لقاء لزام
حلفت على نفسي لأجتهدنّها ... على حالها من صحة وسقام

• •

٢ ــ جرير :

كان جرير أكثر شعراء النقائض رقة في شعره ، الذي يحمل في كثير منه دفقاً من فيض شعوره الصادق وانسانيته . وفي النقائض كان جرير لا يبالي غير سلامته ، فهوْ لا يهجو الاّ من تعرض له من الشعراء ، أي أنه كان يقف موقف المدافع عن نفسه : فقد كان أقل حسباً من خصمه الفرزدق ، وترك هذا في نفسه شعوراً بالنقص ، كان من أهم أسباب رقة شعره وشعوره . فكان ممتازاً في حسه اللفظي ، عالماً بوحي الكلمات وأسرارها وهو لهذا أجاد كثيراً في شعر الوجدان مثل الغزل والرثاء حيث كانت الفاظه تسيل رقة .. وعذوبة .. أو حزناً صادقاً . فمن شعره العذب الرقيق في الغزل قوله :

لقد كتمت الهوى حتّى تهيّمني ... لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
ان العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانـــا
يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به ... وهنّ أضعف خلق الله أركانا
أتبعتهم مقلة انسانها غـــرق ... هل ما ترى تارك للعين انسانا
يا ليت ذا القلب لاقى من يعلّله ... أو ساقياً فسقاه اليوم سلوانا
ما كنت أوّل مشتاق، أخي طرب ... هاجت له غدوات البين أحزانا

يا أم عمرو ، جزاك الله مغفرة ردّي عليّ فؤادي كالّذي كانا
ألست أحسن من يمشي على قدم يا أملح الناس كلّ الناس انسانا

• • •

وعندما مات الفرزدق ، خصم جرير الأكبر ، لم يشمت جرير ، بل حزن على موت رفيقه وخصمه .. مما يؤكد سماحته .. وقد نظم شعراً في رثائه .. قال فيه :

لعمري لقد أشجى تميماً وهدّها على نكبات الدهر موت الفرزدق
عشيّة راحوا للفراق بنعشه الى جدث في هوّة الأرض معمق
لقد غادروا في اللحد من كان ينتمي الى كل نجم في السماء محلّق
عماد تميم كلّها ولسانها وناطقها البذّاخ في كل منطق
فتىً عاش يبني المجد تسعين حجة وكان الى الخيرات والمجد يرتقي

• • •

وقد مات الفرزدق بعد أن بلغ التسعين من عمره .. كما يظهر من رثاء جرير له .

• •

٣ ــ الأخطل :

أمّا ثالث أشهر شعراء العصر الأموي فهو الأخطل ، وهذا لقبه ، أمّا اسمه الحقيقي فهو : أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت .. وكان الأخطل نصرانياً من تغلب .. ورغم أنه فقد أمه وهو صبي في حداثة سنه الا انه نشأ معتداً بنفسه فخوراً بها وبقومه .. وقد اتصل بيزيد بن معاوية الذي كان على

خلاف مع عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري ، فسخّر يزيد الشاعر الأخطل لهجاء الأنصار ، وفعل الأخطل ذلك .. وقد غضب معاوية لفعلته وهمّ بقطع لسانه لولا تدخل ابنه يزيد وتشفعه فيه حتّى عفا عنه .. وكان ذلك في أواخر أيام معاوية ، وقد نظم الأخطل في ذلك قصيدة شكر فيها يزيد ، وليّ عهد معاوية حيث قال :

فلولا يزيد ابن الامام أصابني   قوارع يجنيها عليّ لساني

ومنذ ذلك الحين لم يعد الأخطل صديقاً ليزيد بن معاوية وحده ، ولكنه أصبح شاعراً أموياً ، يدافع عن الدولة الأموية في شعره بحماس ظاهر ، مهاجماً كل أعدائها .. وقد حسّن ذلك من علاقات التغلبيين بالأمويين ودولتهم .

وقد اشترك الأخطل في شعر النقائض ، الذي كان سائداً في ذلك العصر ، فكان أحد شعرائه الثلاثة ، مع جرير والفرزدق .

وأشهر ما تميز به الأخطل في جميع شعره هو : الزهوّ بالنفس ، والفخر ، والاعتداد بالقبيلة .. ومن شعره ذلك قوله :

سعى لي قومي سعي قوم أعزة   فأصبحت أسمو للعلى والمكارم
تمنّوا لنبلى أن تطيش رياشها   وما أنا عنهم في النصال بنائم
وما أنا إن جار دعاني الى التي   تحمّل أصحاب الأمور العظائم
ليسمعني والليل بيني وبينه   عن الجار بالجافي ولا المتناوم

الأدب العربي في العصر العبّاسي

لمحة عامة :

العصر العباسي ، بأدواره المختلفة ، هو أطول العصور المعروفة في التاريخ العربي الاسلامي الحضاري ، اذ انه دام أكثر من خمسة قرون متعاقبة .. منذ سقوط الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هجرية ، وحتّى سقوط عاصمة الخلافة العباسية .. بغداد .. تحت ضربات التتار والمغول الهمجية في سنة ٦٥٦ هجرية ، حيث أفلت شمس الخلافة العباسية نهائياً .. بعد أن كان الوهن قد خلخل بناءها من قبل .

وكما أن العصر العباسي هو أطول العصور العربية الاسلامية من حيث الفترة الزمنية التي استغرقها ، فانه كذلك يعتبر أزمى العصور العربية الاسلامية ، ازدهاراً وتوسعاً في مجالات الحضارة والثقافة المختلفة .

ونظراً لطول الفترة الزمنية التي استغرقها العصر العباسي ، فانه يحسن تقسيمه حسب التطورات السياسية التي حدثت أثناءه ، الى عصور ثانوية .. كانت تتعاقب .. واحداً بعد الآخر .. وهي حسب ترتيبها الزمني :

١ ــ العصر العباسي الأول : وهو الذي يبدأ منذ قيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هجرية .. وامتد هذا مائة سنة كاملة . أي الى سنة ٢٣٢ هجرية ، وهي السنة التي تولّى فيها المتوكل مقاليد الخلافة .

ويعتبر العصر العباسي الأول العصر الذهبي .. وذلك من حيث استقرار أوضاع الحكم فيه وهيبة الخلافة ، وقدرة الخليفة على فرض سلطته الشرعية.

وقد ظهر في هذا العصر عدد من العلماء الروّاد الأوائل ، في مختلف فروع العلم المعروفة آنذاك .

ففي الفقه والتشريع ظهر من الأئمة الأجلاء : مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل .

وفي علوم اللغة والنحو كان من الأعلام الروّاد في هذا العصر : أبو عمرو ابن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، والكسائي، والأصمعي، وعيسى بن عمر ، والفرّاء ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد .

وفي رواية الشعر ، وجمعه ، ونقده ، اشتهر : المفضّل ، وحمّاد ، وأبو عمرو الشّيباني ، وابن سلاّم ، وابن الأعرابي .

أما الشعراء فقد كانوا من الكثرة بما يصعب معه احصاؤهم ، وأشهرهم : أبو العتاهية ، وبشّار بن برد ، وأبو تمّام ، وأبو نواس .

وفي مجال النثر الفني ظهر في العصر العباسي الأول أشهر علمين في الكتابات النثرية الفنية .. وهما : عبد الله بن المقفع ، والجاحظ .

الاّ أن ما يثير في النفس الحسرة والأسى ، أن معظم آثار أولئك الروّاد الأوائل العظام قد ضاعت ، أو اختفت ، ولم يصلنا منها سوى النذر اليسير.. وقد تكشف جهود العلماء الباحثين المخلصين عن المزيد من آثار أولئك الرّواد .. في مستقبل الأيام ان شاء الله .

٢ ــ العصر العباسي الثاني : وقد دام هذا العصر أيضاً مائة سنة كاملة ، فهو قد بدأ في سنة ٢٣٢ هجرية ، حين تولّى المتوكل مقاليد الخلافة ، وانتهى في سنة ٣٣٤ هجرية ، عندما استولى البويهيون على مقاليد الحكم وزمامه في بغداد .

وقد نشطت الحركة الأدبية خلال هذا العصر نشاطاً كبيراً ، فازدهرت

علوم اللغة العربية وغيرها من العلوم .. كما ظهر في هذا العصر جيل من كبار العلماء، الذين أضفوا على العلوم التي اشتغلوا بها صبغة التنظيم المنهجي الدقيق.. ومن أولئك علماء الحديث ، والفقه أمثال : البخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، والطبري ، والبغوي ، وعبد الله بن أبي داود السجستاني ، والحسن بن زكريا العدوي ، ويحيى بن صاعد ، وأبي بكر بن مجاهد ، وأبي يعلى الموصلي .

وفي علوم اللغة والنحو ظهر : ابن درستويه، وابن دريد ، والزجّاج ، والأخفش ، وابن الأزهر ، ونفطويه .

أما الاشتغال بالأدب والتأليف في مجاله فقد اشتهر فيه في هذا العصر : ابن قتيبة ، وثعلب ، والمبرّد .

وأشهر شعراء هذا العصر هم : البحتري ، وابن الرومي ودعبل ، وابن المعتز ، والصنوبري .

كذلك اشتهر في الفلسفة والطب والعلوم : الكندي ، والفارابي ، والرّازي.

٣ ــ العصر العباسي الثالث : وهو العصر الذي يبدأ مع بداية انتقال سلطة الدولة ومقاليد الحكم الحقيقي الى البويهيين في سنة ٣٣٤ هجرية ؛ ويمتد كذلك الى اكثر من مائة عام .. أي الى سنة ٤٤٧ هجرية .

وقد استمر ازدهار الثقافة العربية ، الذي بدأ من قبل ، في النمو والتوسع ، واتسع هذا الازدهار في هذا العصر اتساعاً لا مثيل له من قبل .. ويكفي أن نذكر أن سيف الدولة الحمداني كان من رجالات الدولة الكبار في هذا العصر .. فاسم سيف الدولة اقترن بأسماء أشهر شعراء العرب في التاريخ من أمثال : أبي الطيب المتنبي ، وأبي فراس الحمداني .. وغيرهما .. كما جاء في أواخر هذا العصر أبو العلاء المعري ليضيف اسمه الى أسماء كبار شعراء العصر .. ومن مشاهير الشعراء في هذا العصر كذلك : الشريف الرضي ، والشريف المرتضي .. وفي الأندلس ابن هانىء .

أما أعلام هذا العصر الآخرون فهم : ابن خالويه ، وأبو الفرج الأصفهاني ، والقالي ، وابن فارس ، والأزهري ، والزبيدي ، والجوهري ، وقدامه ، وأبو حيان ، وابن العميد ، والآمدي ، وأبو هلال العسكري ، والجرجاني ، والثعالبي ، والهمذاني ، وابن النديم ، والمسعودي .

كما ظهر في هذا العصر علماء كبار أسهموا اسهامات بالغة الأهمية في إثراء المعرفة الانسانية كلها ، ويدين العالم المتحضر كله لهم بالفضل ، ومنهم: ابن سينا ، والبيروني ، والخوارزمي .

وازدهر العلم والنشاط العلمي في هذا العصر ازدهاراً لا مثيل له ، فكانت الجامعات ، المتمثلة في حلقات الدرس التي كانت تعجّ بها جميع المساجد ، تعجّ بالعلماء وطلاّب العلم في كل فروعه .. كما نشطت حركة التأليف ، فامتلأت المكتبات بالكتب ، وانتشرت في كل مكان .

٤ ـ العصر العباسي الرابع : وهو الذي يبدأ في سنة ٤٤٧ هـ ، السنة التي انتقلت فيها السلطة في عاصمة الخلافة .. بغداد .. الى السلاجقة .. ويستمر حتى سقوط بغداد تحت ضربات التتار الهمجية العنيفة ، بقيادة هولاكو في سنة ٦٥٦ هـ .

وقد كان العصر العباسي الرابع ، والأخير ، عصر اضطراب سياسي ، كثرت فيه الفتن والثورات والحروب ... وفي هذا العصر قامت أوروبا المسيحية بغزواتها الصليبية المتكررة على البلاد الاسلامية بوحشية وعنف ، وفي هذا العصر كذلك اجتاح القائد المغولي جنكيز خان البلاد الاسلامية في حملة التتار البربرية ، ثم أعقبه حفيده هولاكو بهجوم ، أكثر وحشية وبربرية ، على البلاد الاسلامية .. وكان عهد جنكيز خان ، وعهد حفيده هولاكو من بعده ، عهد شؤم ووبال ونكبة عظمى على الحضارة الانسانية الرفيعة التي احتضنها العرب والمسلمون ، وأناروا بشعلتها الوهاجة دروب الانسانية كلها

نحو مدارج الرقي والكمال .. ويذكر المؤرخون دائماً باللوعة والأسى ذلك التصرف البربري الهمجي الذي أقدم عليه المغول والتتار حينما أحالوا مياه نهر دجلة الى لون الحبر ، مـــن كثرة مـــا قذفوا في ذلك النهر من الكتب والصحائف ، فضاع بضياعها الكثير من أسرار العلم والمعرفة .

ورغم ما اتسم به ذلك العصر العباسي الأخير من اضطراب وعدم استقرار ، ورغم ما وقع فيه من الفتن والثورات والحروب الكثيرة ، فانه قد نبغ فيه كثير من العلماء والأدباء والشعراء .. في مشرق العالم الاسلامي ، ومغربه .

ففي علوم اللغة والنحو والأدب اشتهر في ذلك العصر المضطرب سياسياً كل من : التبريزي ، والحريري ، والجواليقي ، وابن الشجري ، والأنباري ، والعكبري ، والزوزني ، وعبد القاهر الجرجاني ، والزمخشري ، والرغب الأصفهاني ، والميداني ، وابن بسام .

وفي التاريخ وعلم التراجم كان من أعلام ذلك العصر : ابن عساكر ، وعز الدين بن الأثير ، والقفطي ، والسمعاني ، وياقوت الحموي .

وفي علوم المنطق ومجالات الفكر والفلسفة اشتهر في ذلك العصر : ابن حزم والغزالي ، والشهرستاني ، وابن عربي ، وابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد.
أمّا أشهر شعراء ذلك العصر فهم : ابن الفارض ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، وابن خفاجة ، وابن سهل ، وابن حمديس .

• •

الملامح العامة لأدب العصر وثقافته

لعل أبرز الملامح العامة للأدب والثقافة في العصر العباسي ذلك الانفتاح الكبير على ثقافات الأمم الأخرى ، التي امتزج بها العرب ، وترك ذلك آثاره الواضحة على جميع ألوان الأدب والثقافة .

ولقد بدأ التبادل الفكري والثقافي بين العرب وغيرهم يأخذ طابع التنظيم الموجه في العصر العباسي ، اذ نشطت حركة الترجمة في هذا العصر نشاطاً كبيراً . وكانت من أهم روافد الثقافة . وكان أول من اهتم بالترجمة الخليفة العباسي المنصور ، الـــذي ترجم له يوحنا البطريق كتاب (المجسطي)، لبطليموس ، وفي عهده ترجم عبد الله بن المقفع عن الفارسية (الفهلوية) كتاب « كليلة ودمنة » . أما بداية العهد الذهبي الحقيقي للترجمة فقد كانت في عهد الخليفة المأمون ، الذي بدأ في سنة ١٩٨ هجرية .

ورغم النشاط الكبير في ترجمة كتب الفرس والهنود والاغريق (اليونان)، فان الشعر العربي ظل محتفظاً بطابعه العربي الأصيل ، بعيداً عن التأثر بالثقافة الأجنبية .. وان كانت هنالك بعض الآثار الأجنبيـــة فهي محدودة ، مثـــل موضوعات التصوف التي دخلت على الشعر العربي من الشعر الفارسي ، وقد رفع لواء هذا اللون من الشعر شاعران من أصل فارسي هما : أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، ولا بد مـــن ملاحظة أن الأثر الأجنبي في الشعر العربي ، على ضآلته ، كان محصوراً في الموضوعات فقط ، أما أسلوب الأداء الفني والبناء الموسيقي ، فقد ظل عربياً خالصاً .

وقد ازدهر الشعر في العصر العباسي ازدهاراً عظيماً بفضل تشجيع الخلفاء والوزراء ، والولاة للشعراء ، وكانوا يجزلون لهم العطاء بسخاء . بل ان من الأمراء والخلفاء العباسيين من كان من أشهر شعراء عصره .. مثل ابن المعتز .

وقد واكب الشعر العربي التطور والتمدن اللذين طرآ على الحياة العربية . فوصف الشعراء القصور العظيمة وأجادوا .. مثل البحتري الذي وصف كثيراً من مظاهر التمدن الحضاري في ذلك العصر ، ومن أجمل ما قاله في ذلك، وصفه للقصر الذي بناه المعتز بالله ابن الخليفة المتوكل ، وأسماه قصر (الكامل) ومما قاله البحتري في وصفه :

رفعت لمخترق الرياح سموكه ... زهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه ... لجج يمجن على جنوب سواحل
لبست من الذهب الأصيل سقوفه ... نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق ... متلهب العالي أنيـق السافـل
وكأنمـا نشرت على بستانه ... سيراء وشي اليمنـة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها ... عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفست فيـه الصبا فتعطفت ... أشجاره من حيـّل وحوامل
مشى العذارى الغيد رحن عشية ... مـن بين حالية اليدين وعاطل

ولقد أفضى هذا الترف الحضاري ، الذي تبارى الشعراء في وصفه ، الى انغماس كثير من الناس في اللهو والمجون ، وسجل شعراء العصر ذلك اللهو، وفي مقدمتهم الشاعر أبو نواس .. كذلك ظهر شعر المزاح والدعابة ، وهما من مستلزمات حياة الترف . ومن شعراء الفكاهة والمزاح والدعابة ابن الرّومي، الذي كان سليط اللسان في مزاحه،وهاهوذا يداعب أبا حفص الورّاق ، وهو يصف صلعته ، فيقول :

يـا صلعة لأبي حفص ممرّدة ... كأن ساحتهـا مرآة فـولاذ
ترنّ تحت الأكف الواقعات بها ... حتّى ترنّ بها أكناف بغداد

ومن الألوان الجديدة في موضوعات الشعر في العصر العباسي الشعر التعليمي ، أو شعر المتون . ومن ذلك ما ذكره أبو الفرج عن نظم الشاعر أبان لكتاب « كليلة ودمنة » شعراً . ونظم كثير من الشعراء موضوعات تعليمية ، كالصوم ، والنحو ، وغيره ، مثل الكسائي النحوي الذي قال :

انّما النحو قياس يتبع وبه في كل أمر ينتفع
فإذا ما أبصر النحو فتى مر في المنطق مرّاً فاتسع

وعند ظهور الدويلات التف الشعراء حول الأمراء الأقوياء ، وأشهرهم الأمير سيف الدولة الحمداني ، أمير حلب ، الذي كان من بطانته من الشعراء المتنبي الذي اختلف معه فيما بعد بسبب الوشاة ، فهجره ، ورحل الى كافور الأخشيدي في مصر ، ثم اختلف معه ، فتركه ورحل الى بلاد فارس ، حيث اتصل بعضد الدولة بن بويه ومدحه فأجزل له العطاء ، ومدح كذلك ابن العميد ، ولما رجع من عند عضد الدولة قاصداً بغداد الى الكوفة ، في شعبان لثمانية خلون منه سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، عرض له فاتك بن الجهل الأسدي في عدة من أصحابه ، وبعد معركة كاد ينجو منها المتنبي بالهرب ، قتل المتنبي ومعه ابنه .. والحق ان المتنبي هو أحد أعظم شعراء العربية ، بل شعراء الانسانية كلها ، وأبرز ما يميزه طموحه الذي لا حدود له ، وعلوّ همته ، وقد عبّر عن ذلك في شعره ، وهو من أعظم ما عرف من الشعر العربي شكلاً ومضموناً .

ومن أبرز ملامح الشعر في العصر العباسي التجديد في المعاني ، ومن أشهر شعراء المعاني المتجددة في العصر العباسي أبو تمّام الذي شبّهه بعض العازفين بأنه كالقاضي العدل : يضع اللفظ موضعها ، ويعطي المعنى حقه ، بعد طول النظر ، والبحث عن البيّنة ، فأبو تمّام يعنى بالمعاني الدقاق وبالصنعة — من الجناس والمطابقة وما اليهما .

ومن ملامح الشعر العربي في العصر العباسي كذلك العمق الفلسفي ، وصياغة الفكرة المعقدة في شعر رصين يعبر عن تصور خاص للحياة .. ومن أبرز أعلام هذا الاتجاه في الشعر الشاعر أبو العلاء المعري .

وقد كثر رواة الشعر القديم في أوائل العصر العباسي ، وعظم شأنهم ، وأصبح من بينهم محترفون للرّواية ، منقطعون اليها . وفي طليعة أولئك الرّواة أبو عمرو بن العلاء الذي كان إماماً في اللغة والرّواية والقراءات ، وشيخ جيل من العلماء ، وأبو عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري ، ، والمفضل الضبيّ ، وخلف الأحمر ، وحمّاد بن ميسرة ، وابن سلاّم الجمحي ،

وأبو سعيد السكّري .. وقد تصدّى هؤلاء العلماء لجمع الشعر في جملة ما تصدوا لجمعه من لغة العرب وأخبارهم ، وكان يساعدهم على ذلك ذكاؤهم الوقّاد وقريحتهم الصافية وذاكرتهم العجيبة ... فكانوا يروون معارفهم بتدقيق ، ويرتجلونها عن ظهر قلب . وكتب الأدب حافلة بأخبار هذا الجيل من علماء العربية .

واتخذ أولئك الرّواة طرائق جمع الحديث ومناهجه في روايتهم لشعر العرب ، فكانوا يحرصون على تسلسل الرّواية وصحة الاسناد .

ولم يكد يمضي العصر العباسي الأول حتى اكتملت مجموعات ضخمة من المعارف والآداب بلغة العرب ، من شعر ، ونثر ، وخطب ، وأمثال ، ونوادر وأخبار .. وكان للشعر من ذلك كله أوفى نصيب .

ومما هو جدير بالملاحظة أن عناية الرواة الأوائل اتجهت في بادىء الأمر الى رواية الشعر القديم ، وبخاصة الجاهلي ، حتى كادت تقصر جهدها عليه ، وهذه ظاهرة طبيعية تجاه نتاج أدبي حافل ، طال عليه الأمد قبل أن يحظى بالجمع والتدوين ، ومع ذلك فقد ضاع منه الشيء الكثير ، قبل أن يتدارك أولئك الرواة ما تبقى منه ، وكان عملهم ذلك جليلاً وعظيم الفائدة .

وعلى الرغم من أن طبقة جديدة من الشعراء المحدثين ، الذين عرفوا بالمولّدين ، عاصروا أبرز رواة الشعر والأخبار ، ابتداء من القرن الثاني للهجرة ، فانهم لم يحظوا باهتمام أولئك الرواة . ولكن ما لبث الرواة بعد أن اطمأنوا الى أن الكثير من القديم قد جمع ودوّن ، والى ان الكثير من الجديد جدير بالجمع والتدوين – ما لبثوا أن وجهوا عنايتهم الى هذا الجديد . ومن أبرز من اهتمّوا بالشعر المحدث جمعاً وتدويناً : أبو بكر الصّولي ، والحسن ابن بشر الآمدي ، وأبو الحسن الجرجاني ، ويحيى بن علي التبريزي ، وابن جني ، وابن خالويه .. ولقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء أن قصروا اهتمامهم على الشعراء المحدثين دون الأقدمين ، على النقيض من أسلافهم الذين أهملوا المحدث من الشعر وأوقفوا اهتمامهم على القديم منه فقط :

وخلاصة القول أن الشعر العربي ظل دائماً محتفظاً بعروبته وسماته العربية الخالصة ، فكان بحق ديوان العرب ، وترجمان أفكارهم ، والمرآة التي انعكست على صفحتها جميع صور حياتهم ، العامة والخاصة .

نماذج من الأَدب في العصر العباسي

أولاً : الشعر :

كان (أبو تمام) شاعر المعاني ، وكان من أقدر الشعراء على التجديد في ذلك ، ومن أحسن ما صوّره التعبير عن أحاسيس الطير .. ومن ذلك ما قاله في مقارنة بين ما كان يعانيه من حزن وهم .. وبين ما لاحظه على قمري ، وقمريه من تبادل رحيق الهوى في سعادة وحبور .. حيث قال يصف ذلك:

غنّى فشاقك طائـــر غرّيد ... لمّـا ترنّم والغصون تميـد
ساق على ساق دعـا قمريّة ... فدعت تقاسمه الهوى وتصيد
إلفان في ظل الغصون تألّفاً ... والتف بينهما هوى معقـود
يتطعّمان بريق هــذا هــذه ... مجعاً وذاك بريق تلك معيـد
يا طائــران تمتّعا هنّيتمـــا ... وعما الصّباح فانّني مجهود
أبكى وقد تلت البروق مضيئة ... من كلّ أقطار السماء رعود
واهتزّ ريعان الشباب فأشرقت ... لتهلّل الشجر القرى والبيد
ومضت طواويس العراق فأشرقت ... أذناب مشرقة وهــن حفـود
يرفلن أمثال العذارى طوّفـاً ... حول الدّوار وقد تدانى العيد

• • •

ومن أشهر شعراء العصر العباسي الثاني الشاعر ابن الرّومي ، وهو من أصل يوناني ، وقد برع ابن الرومي في استحداث المعاني ، مثل أبي تمام من قبل ، ويذكر

معاصروه أنه كان ضيق الصدر ، سريع التغير والانقلاب . وأمه كانت من أصل فارسي ، فكان يفتخر باليونان أحياناً ، وبالفرس أحياناً أخرى .. ولابن الرّومي أحكام قاسية على المرأة ، وقد يكون دافعه الى ذلك شيوع دور القيان ببغداد في عصره ، وان كثيرات منهن لم تكن سيرتّهن حسنة ،. ومن بديع شعره ما صور به الربيع ومناظر الطبيعة فيه ، حيث قال :

ورياض تخايل الأرض فيها ... خيلاء الفتاة في الأبراد
ذات وشي تناسجته سوار ... لبقات بحوكه وغوادي
فهي تثني على السماء ثناء ... طيّب النشر شائعاً في البلاد
من نسيم كأن مسراهُ في الأر ... واح مسرى الأرواح في الأجساد
منظرٌ معجب تحيّة أنف ... ريحها ريح طيّب الأولاد
تتداعى بها حمائم شتّى ... كالبواكي وكالقيان الشوادي
تتغنّى القران منهن في الأيـ ... ـك وتبكي الفراد شجو الفراد

• • •

ومن شعراء العصر العباسي الذين أجادوا في وصف الربيع أيضاً الشاعر الصنوبري ، وهو أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الصنوبري ، الذي عاش في حلب في مطلع القرن الرابع الهجري ، وقد اتصل الصنوبري هذا بسيف الدولة أمير حلب ، الذي أجزل له العطايا وجعله أميناً لمكتبته .. ومن روائع شعر الصنوبري في وصفه الربيع قوله :

يا ريم قومي الآن ويحك فانظري ... ما للرّبى قد أظهرت أعجابها
كانت محاسن وجهها محجوبة ... فالآن قد كشف الربيع حجابها
ورد بدا يحكي الخدود ونرجس ... يحكي العيون اذا رأت أحبابها
والسرو تحسبه العيون غوانيا ... قد شمّرت عن سوقها أثوابها

ومن مشاهير شعراء العصر العباسي أبو الطيب المتنبي .. وهو أشهر شعراء ذلك العصر ، وأحد أشهر شعراء العربية .. واسمه الكامل هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي .. وهو كندي ، كوفي اذ ولد سنة ٣٠٣ هـ في محلة كندة بالكوفة ، ونشأ بها ، وأولع بحفظ الشعر وتعلمه منذ نعومة أظفاره، وصباه .. وكان متمكناً من العربية وقد ساعده في ذلك أنه عاش في بني كلب في البادية فترة تعلم فيها الفصاحة وتشبع بها .

وقد اتهم أبو الطيب في مطلع حياته بأنه ادّعى النبوّة ، وقد سجن لذلك من قبل أمير حمص فترة ، ثم أطلق سراحه ، ولكن لقب المتنبي لازمه بعد ذلك طوال حياته على كره منه .

وقد تميزت شخصية المتنبي بالشعور بالعزة رغم بساطة الأسرة التي ينتمي اليها ، وقد كان طموحاً الى أبعد درجات الطموح واتصل بمشاهير أمراء عصره ، وفي مقدمتهم سيف الدولة امير حلب ومدحه حتى خلد ذكره في الأدب العربي ، ثم اختلف معه فرحل الى مصر واتصل بحاكمها آنذاك كافور الأخشيدي الذي وعده بأن يقلده امارة ولكنه خشي من غلوّه في الاعتزاز بنفسه فامتنع عن تحقيق وعده له ، فاستاء المتنبي واستأذن في الرحيل فلم يأذن له كافور ، ولكن المتنبي غافله وخرج ليلة عيد النحر لسنة ٣٥٠ هـ متجهاً الى الكوفة .. ومنها ذهب الى بلاد فارس التي اتصل فيها بعضد الدولة وبوزيره إبن العميد .. ثم قرر العودة الى العراق فخرج عايه في الطريق فاتك بن أسد في جماعة من أعراب بني ضبه فقتل المتنبي بعد معركة حامية الوطيس .

ويتميز شعر المتنبي بالقوة والعمق ، وقد اشتغل بشعره المؤرخون والنقاد منذ القدم حتى تخصص كثير منهم في شرح شعره ، أو نقده ، أو التأريخ له .. وفي شعره عمق فلسفي وحكمة مصدرها التجربة والحنكة .. ومن عيون شعره قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله | وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لا يخدعنك من عدوّ دمعه | وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى | حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد | ذا عفة فلعلّة لا يظلم
ومن البليّة عذل من لا يرعوي | عن غيّه وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه | ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

• • •

ومن مشاهير شعراء العصر العباسي كذلك الشاعر الفيلسوف الحكيم أبو العلاء المعري ، واسمه الكامل هو : أبو العلاء بن عبد الله بن سليمان المعرّي التّنوخي ، ولد بمعرّة النعمان في بلاد الشام سنة ٣٦٣ هـ ، وأصيب بمرض الجدري وهو في الثالثة من عمره ، ففقد بصره بسبب ذلك المرض الخبيث .

وقد ظهر نبوغ أبي العلاء وذكاؤه منذ طفولته حيث كان يتمتع بقدرة نادرة المثال على الحفظ ، اذ كان يحفظ كل ما يسمعه من مرة واحدة.. وقد تلقّى العلم على والده الذي كان عالماً ، وعلى كثير من كبار أئمة زمانه .

كان لفقدان أبي العلاء بصره أثر كبير على تكوينه النفسي فقد عاش في ضيق نفسي حتى سمى نفسه : « رهين المحبسين » أي : العمى والمنزل ... فكان زاهداً في الحياة ، مبتعداً عن لذاتها .. وقد انعكست آثار ذلك على شعره .. وقد مات أبو العلاء سنة ٤٤٩ هـ ولم يتزوج قط ولم ينجب .. ومن أشهر ما نظمه تعبيراً عن فلسفته في الحياة ، قوله :

غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي | نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيس | بصوت البشير في كل ناد

أبكت تلكم الحمامة أم غنّت على فرع غصنها الميّاد
صاح هذي قبورنا تملأ الرّحب فأين القبور من عهد عاد ؟
خفّف الوطء ما أديم الأ رض الا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدم العهد هوان الآباء والأجداد
سر ان استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد

الى أن يقول :

انّ حزناً في ساعة الموت ، أضعا ف سرور في ساعة الميلاد
خلق النّاس للبقاء ، فضلّت أمّة يحسبونهم للنّفاد
انّما ينقلون من دار أعما ل الى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الا جسم فيها ، والعيش مثل السهاد

• • •

وما أكثر شعراء العصر العباسي .. ولكننا نكتفي بهذا القدر منهم ومن نماذج شعرهم .

• • •

ثانياً : النثر :

لم يكن حظ النثر العربي الفني بأقل من حظ الشعر في العصر العباسي . فقد تطور النثر في أساليبه وأغراضه ، وظهرت فيه أجناس جديدة لم يعرفها العرب من قبل ، مثل الأدب الرمزي القصصي على ألسنة الحيوانات ، الذي كان

عبد الله بن المقفع أول من نقله من الهندية والفارسية الى العربية في كتـــاب « كليلة ودمنة » وهو كتاب يضم بين دفتيه مجموعة قصص رمزية على ألسنة الحيوانات تعبر عن الحياة البشرية بصورة غير مباشرة . وقد امتاز أسلـــوب ابن المقفع فيها بالبساطة في التعبير وجمال الاسلوب فكان أحد أبرز أعلام النثر العربي .. ومن تلك القصص التي ترجمها ابن المقفع وكتبها بنثره الفني الجميل هذه القصة

– قال ابن المقفع من باب « الحمامة والثعلب ومالك الحزين » في كتاب « كليلة ودمنة »

« قال الفيلسوف : زعموا أن حمامة كانت تفرّخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء فكانت الحمامة تشرع في نقل العش الى رأس تلك النخلة ، فلا يمكنها ما تنقل من العش ، وتجعله تحت البيض ، الا بعد شدة وتعب .. ومشقة ، لطول النخلة وسحقها . وكانت ، اذا فرغت من النقل باضت ، ثم حضنت بيضها ، فاذا انقاض وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب قد تعهّد ذلك لوقت قد علمه ، ريثما ينهض فراخها ، فوقف بأصل النخلة ، فصاح بها ، وتوعّدها أن يرقى اليها ، أو تلقي اليه فراخها ، فتلقيها اليه . فبينما هي ، ذات يوم ، وقد أدرك لها فرخان ، اذ أقبل مالك الحزين ، فوقع على النخلة . فلما رأى الحمامة كئيبة ، حزينة ، شديدة الهم ، قال لها : يا حمامة — مالي أراك كاسفة البال سيئة الحال ؟ فقالت له : يا مالك الحزين ، ان ثعلباً دهيت به ، كلما كان لي فرخان جاءني يتهددني ، ويصيح في أصل النخلة ، فأفرق منه ، فأطرح اليه فرخيّ ، . قال لها مالك الحزين — اذا أتاك ليفعـــل ما تقولين ، فقولي له : لا ألقي فرخيّ ، فارق اليّ وغرّر بنفسك ، فاذا فعلت ذلك ، وأكلت فرخيّ ، طرت عنك ونجوت بنفسي . فلما علّمها مالك الحزين هذه الحيلة ، طار فوقع على شاطىء نهر . وأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف ، فوقف تحت النخلة ، ثم صاح ، كما كان يفعل ، فأجابته الحمامة بما علّمها

مالك الحزين ، فقال لها : أخبريني من علمك هــذا ؟ قالت : علمني مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين ، على شاطىء النهر فوجده واقفاً . فقال له الثعلب : يا مالك الحزين ، اذا أتتك الريح عن يمينك ، فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالي . قال : فاذا أتتك عن شمالك ، أين تجعــل رأسك ؟ قال : أجعله عن يميني أو خلفي . قال : فاذا أتتك الريح من كــل مكان .. وكل ناحية ـ أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحيّ . قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ؟ ما أراه يتهيأ لك . قال : فأرني كيف تصنع؟ فلعمري ، يا معشر الطير ، لقد فضّلكنّ الله علينا . انّكن تدرين في ساعــة واحدة ، مثل ما ندري في سنة ، وتبلغنّ ما لا نبلغ ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكنّ من البرد والرّيح .. فهنيئاً لكنّ ، فأرني كيف تصنع ؟ فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه ، فوثب عليه الثعلب مكانه ، فأخذه فهمزه همزة دقّت عنقه ، ثم قال : يا عدوّ نفسه ، ترى الرأي للحمامة ، وتعلّمها الحيلة لنفسها ، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوّك . ثم قتله وأكله »

الأدب العربي في العصر الأندلسي

الملامح العامة :

تمكّن المسلمون في نهاية القرن الأوّل للهجرة – بداية القرن الثامن الميلادي من الوصول الى جنوب غربي أوروبا عبر مضيق جبل طارق الذي يفصل بين شمال أفريقيا وجنوب غربي أوروبا .. وكانت تلك هي بداية الحكم الاسلامي العربي لتلك المنطقة التي عرفت باسم « الأندلس » . واسم « الأندلس » الذي أصبح اليوم لا يدلّ الاّ على جزء بسيط من جنوب اسبانيا ، كان في العهود الاسلامية يدل على جميع المناطق التي حكمها المسلمون في شبه جزيرة «ايبيريا» والتي تشمل اسبانيا والبرتغال وبعض أجزاء جنوب فرنسا .

واستمر حكم المسلمين لتلك البلاد أكثر من ثمانمائة عام ، كانت كلها حركة دائبة في عملية بناء حضاري مستمر وشامل ، لم تر أوروبا مثله من قبل.

وقد أدخل المسلمون معهم العدالة الاجتماعية الى أوروبا ، فأقبل الناس هناك على اعتناق الدين الاسلامي الذي يحقق لهم السعادة والأمن والاطمئنان ، إذ كانت اسبانيا تعاني من قبل ، مثل بقية أقطار أوروبا الأخرى ، من جور الحكام وفوضى الحكم ما جعلها تعيش في اضطراب وجهل وظلام مطبق لم يبدّده الاّ نور الاسلام الذي أشرق على أوروبا كلّها من بلاد الأندلس الإسلامية في نهاية القرن الأوّل للهجرة، أي في بداية القرن الثامن الميلادي .

وقد كانت فترة الخلافة الأموية في الأندلس أعظم عهود الحكم العربي الإسلامي هناك من ناحية الاستقرار السياسي ، والإزدهار الحضاري . وكانت

مدينة « قرطبة » هي عاصمة الدولة الاسلامية الموحدة في الأندلس في عهد الخلافة الأموية ، وقد كانت مهوى لأفئدة طلاب العلم من كل مكان .، لأنها كانت مجمع العلماء ومركز العلم والأدب والفن الرفيع . واهتم خلفاء بني أمية بالعلم والعلماء وبالمكتبات ، وشيّد الخليفة المستنصر بالله في قصر الزهراء بقرطبة أعظم مكتبة في ذلك الزمان وقد جمع لها من الكتب والنسّاخ والمترجمين ما جعلها تضاهي « دار الحكمة » التي شيّدها العباسيون من قبل في بغداد في المشرق العربي . وتميزت مكتبة قصر الزهراء في قرطبة بأنها كانت مركزاً لترجمة العلوم والمعارف والآداب من العربية الى اللغات الغربية ، أي أنها كانت مركز اشعاع علمي اسلامي عربي في أوروبا ، بينما كانت « دار الحكمة » في بغداد مركزاً للترجمة من اليونانية وغيرها من اللغات الى العربية . وقد أشاد كل من أرّخوا للأندلس بالمستوى العلمي الرفيع الذي كانت عليه مكتبة الزهراء العظيمة في قرطبة ، فكتب المقري المتوفي سنة ١٠٢٧ م يصف تلك المكتبة في كتابه الشهير باسم « نفح الطيب » يقول : « ان المستنصر بالله جمع بدار الكتب الحذّاق في النسخ والمهرة في الخط والضبط والاجادة في التجليد فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده » . «(١)

وكانت الحضارة الاسلامية في الأندلس مكتملة الجوانب شاملة لجميع مجالات العلم والأدب والفن متميزة بالابتكارات الكثيرة والابداع العظيم .. أما الأدب فقد ازدهر في تلك الديار ازدهاراً نادر المثال ، حتى روى ياقوت الحموي في « معجم البلدان » عن مدينة « شلب » الأندلسية أنه : « قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني أدباً ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه ، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه » «(٢)

---

(١) « نفح الطيب : ج ١ ص ١٨٠ ط الازهر المصرية .

(٢) « معجم البلدان : ج ٣ ص ٣٥٧ .

ولم تقتصر فنون الأدب والشعر في الأندلس على ما عرف في المشرق العربي من قبل ، بل ظهرت هناك أجناس أدبية كثيرة جديدة ، منها على سبيل المثال : « الموشحات » و « الأزجال » ، كما ازدهر الغنـــاء وتطورت الموسيقى في الأندلس وانتقل ذلك كله الى أوروبا وأثر في آدابها أعظم تأثـــير لا زالت بصماته واضحة المعالم حتى يومنا هذا .

وكما ازدهرت الآداب والفنون ازدهرت الفلسفة وعلوم المنطق على أيدي العلماء المسلمين في الأندلس ، التي يعتبر فلاسفتها أساتذة فلاسفة أوروبا .. ومن أشهر أولئك الفلاسفة الأندلسيين محمد بن باجّة المتوفي سنة ٥٣٣ للهجرة ، وابن رشد المتوفي سنة ٥٩٥ للهجرة وهو أعظم من أثّر في الفلسفة الأوروبية من فلاسفة المسلمين ، وابن طفيل صاحب القصـــة الفلسفية الشهيرة باسم « حي بن يقظان » التي ترجمت الى معظم اللغات الأوروبية .

كما تكاد الأندلس تنفرد برحالتها العظام وعلماء الجغرافيا فيها من أمثال : الإدريسي ، وابن جبير ، وابن بطوطة .

ومن أشهر العلماء المؤلفين في الأندلس ابن حزم الذي يعتبر أول مـــن استلهم منه أدباء أوروبا شعر الحب العذري الرقيق الذي وضع قواعده في كتابه الأدبي الشهير « طوق الحمامة في الألفة والإيلاف » وقد توفي ابن حزم سنة ٤٥٦ هـ . ومن مشاهير المؤلفين في الأدب في الأندلس أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب « العقد الفريد » وقد توفي سنة ٣٢٨ هجرية .

وفي مطلع القرن الخامس الهجري انهار عهد الخلافة الأموية في الأندلس ، وقامت دويلات حكمها ملوك وأمراء عرفوا باسم « ملوك الطوائف » وكان أشهرهم وأكثرهم قوة ملوك بني عبّاد بأشبيلية ويعتبر آخر ملوكهم « المعتمد ابن عباد » أشهر شعراء الأندلس ، وهو يصور في شعره مأساة انسانية كبرى هي زوال ملكه وانتقاله من العز والمجد الى الأسر والهوان .

وبعد ملوك الطوائف قامت دولة المرابطين ، ثم مرت الأندلس بعهود اضمحلال بسبب الخلاف الحاد بين حكامها ، وقد انتهى حكم المسلمين للأندلس بسقوط مملكة غرناطة في سنة ٨٩٧ للهجرة الموافقة لسنة ١٤٩٢ م ؛

•••

نماذج من الأدب العربي في الأندلس

أولاً : الشعر :

من أشهر شعراء الأندلس الشاعر « ابن هانىء » المتوفي سنة ٣٦٢ للهجرة ، وهو من أبناء منطقة اشبيلية حيث ولد في قرية من قراها ، ونشأ على حب الأدب وحفظ الشعر حتى تمكن من نظمه وتفوق فيه ، وله ديوان شعر تدل قصائده على تمكنه ورقة شعره . وقد رحل ابن هانىء الى المغرب . واتصل بالمعز لدين الله العبيدي الفاطمي قبل أن يتوجه الى مصر بعد أن استولى عليها باسمه قائده جوهر . وامتدح ابن هانىء المعز ونعم بجوائزه الكثيرة ، ولكنه لم يلحق به في مصر لأنه توفي وهو في طريقه اليها .

ومن روائع شعر ابن هانىء ما نظمه في وصف المطر وما يعقبه من جمال الطبيعة ، حيث قال :

ألؤلؤ دمع هذا الغيث أم نقط ما كان أحسنه لو كان يلتقط
كأنّ تهتانا في كل ناحية مدّ من البحر يعلو ثم ينهبط

والبرق يظهر في لألاء عزّته قاض من المزن في أحكامه شطط
والأرض تبسط في خد الثّرى ورقاً كما تنشّر في حافاتها البسط
والرّيح تبعث أنفاساً معطّرة مثل العبير بماء الورد يختلط

• • •

ومن مشاهير شعراء شرقيّ الأندلس الشاعر ابن خفاجة واسمه بالكامل هو: أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله بن خفاجه ، وشعره يمتاز بالرقة والجزالة، وتفوقه العظيم في وصف الطبيعة الأندلسية الفاتنة الجميلة . وقد توفي ابن خفاجة سنة ٥٣٣ للهجرة ، أمّا مولده فكان سنة ٤٥٠ هجرية بجزيرة شقر من أعمال بلنسية بشرقي الأندلس . ومن أجمل ما نظمه ابن خفاجه في وصف الطبيعة الأندلسية ، هذه الأبيات التي يصف فيها نهراً في شرقيّ الأندلس ، فيقول :

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطّف مثل السّوار كأنه والزهر يكنفه مجرّ سماء
قد رق حتى ظنّ قرصاً مفرغاً من فضه في بردة خضراء
وغدت تحفّ به الغصون كأنها هدب تحفّ بمقلة زرقاء
والرّيح تعبث بالغصون، وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

• • •

ومن أشهر شعراء الأندلس الشاعر الملك المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيليه، الذي بلغ ذروة المجد ، ثم غدر به الزمان فطرد وأسر ومات سجيناً .. فكان رمزاً لمأساة تنفطر لها القلوب . وقد فضل المعتمد ان يستنجد بابن تاشفين ويقع في أسره على أن يتعاون مع غير المسلمين وفي بداية حكمه امتد سلطانه على معظم أنحاء الأندلس وكانت مملكته أعظم مملكة أندلسية في عهد ملوك

الطوائف . وبعد أن جاء ابن تاشفين من المغرب لنجدة المعتمد ، أغراه الملك فخلع ابن عبّاد ، واستأثر بالملك لنفسه وعاش المعتمد أخريات أيام حياته أسيراً في سجن أغمات بالمغرب ، وقد وصف مأساته ومأساة أسرته في شعر يذوب رقة وتنفطر القلوب لسماعه ، ومنه وصفه لحالته وحالة بناته في أحد الأعياد التي مرت به وهو في الأسر حيث قال :

في ما مضى كنت بالأعياد مسروراً فجاءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ، ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعــة أبصارهنّ ، حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطّين والأقدام حافية كأنّهـــا لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خدّ الاّ تشكّى الجدب ظاهره وليس الاّ مع الأنفاس ممطورا
أفطرت في العيد لا عادت اساءته وكان فطرك للأكبـــاد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلاً فردّك الدّهر منهيّاً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسرّ بـــه فإنّما بات بالأحلام مغرورا

• • •

وأشهر شعراء الغزل في الأندلس الشاعر ابن زيدون المتــوفي سنة ٤٦٣ للهجرة ، الذي اشتهر في تاريخ الحب والأدب بحبه لولاّدة إبنة آخر خلفاء بني أمية في الأندلس . ومن روائع شعره في ولاّدة ما نظمه بعد أن سجن ذات مرة ثم أطلق سراحه ،فقال يتذكر أيام الود والصفاء مع محبوبته . :

أضحى التّنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
هلاّ وقد حان صبح البين صبّحنا حين فقام بنا للحين ناعينا
مـــن مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينـــا

انّ الزّمان الذي ما زال يضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغصّ فقال الدّهر آمينا
فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرّقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

• • •

ثانياً : النثر :

لا يختلف النثر في أدب الأندلس عن النثر في المشرق العربي ، فهو مليء بالمحسنات ، يقوم على السجع ، أما موضوعاته فمتعددة وفي مقدمتها الرسائل ، والمؤلفات في موضوعات علمية متفرقة . وأشهر الكتّاب الفقيه أحمد بن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » ، وكذلك العالم الجليل ابن حزم .

وأعظم من تركوا من الآثار النثرية ما يعد ابتكاراً ويحمل معالم التجديد في موضوعاته فهو أحمد بن شهيد المتوفي سنة ٤٢٧ للهجرة ، واسمه الكامل هو : أبو عامر بن أبي مروان بن شهيد ، وأشهر آثار ابن شهيد النثرية « رسالة التوابع والزوابع » ، وهي رسالة كتبها ابن شهيد للرد على خصومه ومنتقديه وحساده ، وأراد أن يظهر فيها مقدرته وبراعته في الكتابة وحسن التفكير والتعبير .. وقد تخيل ابن شهيد في « رسالة التوابع والزوابع » أنه صاحب جنيّاً اسمه « زهير بن نمير » وان هذا الجنّي طار به الى عالم الأرواح ، الذي سماه « أرض التوابع والزوابع » حيث اتصل بصاحب امرىء القيس ، وصاحب طرفة ، وصاحب أبي نواس ، وصاحب أبي تمام وغيرهم من الشعراء ، ثم صاحب عبد الحميد الكاتب ، وصاحب الجاحظ وغيرهما من أساطين النثر وأربابه ، فساجلهم ، وعرض عليهم ما عنده ، وكان قصده اظهار مقدرته وبراعته الفنية ، كما سبق أن أشرنا ،.. ورسالته تلك تعتبر نموذجاً

فريداً ، وفيها الكثير من عناصر القصة ، ويبدو أنها كانت من جملة ما تأثر به « دانتي » في الكوميديا الالهية الشهيرة في أدب اللغة الايطالية .

وقد مارس ابن شهيد في نثره النقد الاجتماعي بأسلوب رشيق ساخر وجميل تجلت فيه مقدرته الفنية ، ومن ذلك ما كتبه عــن معلمي قرطبة في زمانه ، وانتقدهم فيه بسخرية لاذعة .. فقال :

« وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة ، لا منفذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان . سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان .. فهــم يصرفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ومن لم تكن له آلة الصناعة » .

وهذا نقد يدل على مقدرة فنية فائقة في التعبير والتصوير في سهولة ويسر .

الأدب العربي بعد نهاية الخلافة العباسية

تمهيد :

بعد مراحل ضعف كثيرة مرت بها دولة الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد كانت النهاية الأخيرة لتلك الحقبة الهامة في التاريخ العربي الاسلامي في منتصف القرن السابع الهجري .. وبالتحديد في سنة ٦٥٦ للهجرة عندما أطاح المغول في همجية وتوحش بعاصمة الخلافة العباسية بغداد ، التي كانت طوال عدة قرون منارة لأعظم اشعاع حضاري أنار سبل التقدم والرقي أمـام الانسانية كلها ، وأمدها بما جاء به الاسلام من نظام فريد متكامل لإصلاح شؤون الحياة وخير الأحياء ، في كل مجال من مجالات العلم والمعرفة والحياة العامة . فبعد أن ضعفت دولة الخلافة العباسية من الداخل تمكنت تلك القبائل الهمجية ، التي تحركت من جنوبي سيبيريا بقيادة جنكيز خان ، من القضاء نهائياً عـلى تلك الخلافة وعاصمتها في عهد هولاكو حفيد جنكيز خان الذي أثارت جيوشه الرعب والهلع والفزع في نفوس المسلمين .. ولقد بلغ من همجية اولئك الغزاة أن خربوا العمران ، وقذفوا بأغلى تراث علمي حضاري في النهر حتى تحولت تلك الكتب العظيمة الى نفايات تطفو فوق مياه النهر في أفظع مأساة حضارية يشهدها المشرق العربي الاسلامي ... ثم أعقب هولاكو تيمورلنك الذي اجتاح آسيا الصغرى وامتد الى الشام مثيراً الرعب ، حتى قضى على ما كان قد تبقى من معالم العلم والحضارة في هذه المنطقة التي نكبت بأولئك الغـزاة المتوحشين من التتار والمغول .

وتزداد المأساة هولاً حينما ينتهي في نهاية هذا العصر عهد الحكم العــربي الإسلامي في الأندلس ، وذلك في ابان القرن العاشر الهجري – الخامس عشر الميلادي .

وفي سنة ٩٢٣ هـ يبدأ عهد الحكم العثماني لبلاد العرب ، الذي استمر حتّى بداية العصر الحديث .

والذي لا بد مـــن الاشارة اليه هو أن الاسلام لم يهزم قط أمام هجمات الغزاة ، بل كان هو المنتصر في النهاية دائماً .. فقد اعتنق التتار بعد نحو نصف قرن الاسلام ، وعملوا على نشره ، وجمعوا حولهم العلماء ، فكان ذلك سبباً في تنشيط الحركة العلمية في المجتمع الاسلامي من جديد .. و « يأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

• • •

حالة الأدب في هذه الحقبة :

رغم أن معظم من أرّخوا لهذه الحقبة التاريخية ، التي تمتد منذ إطاحـــة المغول بعاصمة الخلافة العباسية في منتصف القرن السابع الهجري وتمتد حتّى بداية العصر الحديث في القرن الثالث عشر الهجري – التاسع عشر الميلادي ، قد تعارفوا على تسميتها بعهد الانحطاط .. أو عهد الركود ، الا أن أي منصف ينظر الى ما تركه رجالات تلك الفترة من آثار علمية وأدبية نظرة علمية لا تتأثر بالأحداث السياسية وحدها ، يرى أن تلك الفترة أنجبت عباقرة من العلماء والأدباء تركوا بصماتهم العلمية والأدبيـــة واضحة ليس في التاريخ العربي وحده ، بل وفي التاريخ الحضاري للانسانية كلها ، ويكفي أن نذكر مـــن أولئك الأعلام الكبار من رجالات تلك الفترة على سبيل المثال : العلامة العظيم ابن خلدون المؤرّخ ، والأديب ، والمؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع الحديث .

ومن أبرز أعلام تلك الحقبة كذلك : القلقشندي (صاحب كتاب « صبح الأعشى ») . وابن خلكان ، والمقريزي ، والقزويني ، وأحد أشهر الرحالة العرب والعالميين وهو ابن بطوطة . وصاحب أشهر معجم لغوي جامع ودقيق في اللغة العربية ابن منظور ، والفيروز أبادي ، والعلامة الشهير السيوطي ، ومن علماء النحو : ابن مالك صاحب الألفية الشهيرة ، وابن هشام ، وابن آجروم صاحب الأجرومية .. أما الشعر فكان أقل شأناً ومن أعلامه : الشاب الظريف وهو محمد بن سليمان ، وصفي الدين الحلّي .

ولعل في تذكر أسماء من عاشوا في تلك الحقبة من كبار العلماء والمؤلفين من أمثال ابن خلدون ، والقلقشندي والقزويني ، وابن بطوطة ، ما يؤكد عدم إنصاف من يقول انها كانت فترة انحطاط في الفكر العربي ، الـذي صمد والحمد لله ، بل أن تأثير رجالات تلك الحقبة من العرب والمسلمين في الفكر العالمي كانت من أهم التأثيرات العربية الإسلامية على الإطلاق .

* * *

نماذج من الأدب العربي

في فترة ما بعد الخلافة العباسية وحتى بداية العصر الحديث

أولاً : **الشعر** :

رغم التقدم الذي حدث في بعض العلوم في هذا العصر ، إلاّ أن الشعر العربي لم ينبغ فيه الاّ قلة قليلة من الشعراء ، ولم يكن مستوى شعرهم كما كان عليه الشعر العربي في العصور السابقة ولعل هذا هو ما جعل المؤرخين يسمّون العصر بعصر الانحطاط أو الركود .

ومن أشهر شعراء هذه الحقبة من تاريخ الأدب العربي : الشاب الظريف، الذي عاش فيما بين سنتي ٦٦١ و٦٩٥ هجرية .. واسمه الكامل هو : محمد ابن سليمان واشتهر باسم الشاب الظريف لأنّه كان خفيف الروح ، رشيق الألفاظ في شعره ، وقد أولع بالبديع ، الا انه كان يحسن استعماله في رقة وعذوبة في كثير من الأحيان .. وكان يستعمل العامية أحياناً في شعره .

وقد ولد الشاب الظريف في القاهرة وانتقل الى دمشق التي نشأ بها ، وقد تولى أمر الخزانة فيها ، وتوفي بدمشق سنة ٦٩٥ للهجرة وهو في ريعان شبابه .

وأشهر ما تفوق فيه الشاب الظريف هو شعر الغزل الرقيق .. ومنه هذه الأبيات التي تنم عن عاطفة صادقة وحس مرهف ، ورشاقة في التعبير :. وفيها يقول:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق	واشرح هواك فكلّنا عشّاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى	في حمله ، فالعاشقـون رفاق
لا تجزعنّ ، فلست أوّل مغرم	فتكت به الوجنـات والأحداق
واصبر على هجر الحبيب فربّما	عاد الوصال وللهوى أخلاق
كم ليلة أسهرت أحداقي بهـا	وجداً وللأفكار بي أحـداق

• • •

ومن أشهر شعراء تلك الحقبة أيضاً الشاعر البوصيري ، الذي نظم قصيدة « البردة » في مدح الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم .. تلك القصيدة التي ذاع صيتها ، وحفظها الناس جيلاً بعد جيل ، وازدادت شهرة في العصر الحديث عندما عارضها الشاعر أحمد شوقي بقصيدة نظمها على وزنها وبقافيتها.

وللشاعر البوصيري قصائد أخرى في مدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وفي شعر البوصيري عاطفة دينية صادقة تكسب الشعر جمالاً خاصاً ، كما أن لغته سليمة قوية وبعيدة عن العامية التي اختلطت بالفصحى في شعر كثير من شعراء تلك الحقبة من تاريخ الأدب العربي .

أما قصيدة البردة للبوصيري فلها شهرة عالمية واسعة ، فقد ترجمت الى عدة لغات عالمية ، منها : الفارسية ، والتركية ، والألمانية ، واللاتينية .. كما شرحت هذه القصيدة وفسرت في العربية وغيرها كثيراً أيضاً . و « البردة » قصيدة طويلة تقع في ١٦٢ بيتاً موزعة على عدة موضوعات اسلامية هامة ، فمطلعها الذي يقع في اثني عشر بيتاً يليه ستة عشر بيتاً في ذكر النفس وهواها ، ثم ٣٠ بيتاً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ١٩ بيتاً في مولده صلوات الله وسلامه عليه .. وأبيات في جهاده ، وأخرى في معراجه .. وهكذا .

والبوصيري ولد في بوصير التي لقب نسبة اليها ، ومولده سنة ٦٠٨ للهجرة واسمه الكامل هو : العارف بالله شرف الدين محمد بن سعيد .. وكان بارعاً في الخط العربي ، وقد تولى مديرية الشرقية بمصر ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٩٦ هجرية .

ومن قصيدته الشهيرة « البردة » هذه الأبيات :

أمن تذكّر جيران بذي سلم	مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبّت الرّيح من تلقاء كاظمة	وأومض البرق في الظّلماء من اضم
فما لعينيك ان قلت: «اكففا» همتا	وما لقلبك ان قلت: «استفق» يهم؟
يا لائمي في الهوى العذريّ معذرة	منّي اليك ، ولو أنصفت لم تلم
محضتني النّصح لكن لست أسمعه	انّ المحبّ عن العذّال في صمم
انّي اتهمت نصيح الشيب في عذلي	والشّيب أبعد في نصح عن التّهم
فانّ أمّارتي بالسّوء ما اتّعظت	من جهلها بنذير الشيب والهرم

ولا أعدّت من الفعل الجميل قرى ضيف ألمّ برأسي غير محتشم
من لي بردّ جموح من غوايتها كما يردّ جماح الخيل باللّجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها ان الطّعام يقوّي شهوة النّهم
والنفس كالطفل ان تهمله شبّ على حبّ الرّضاع ، وان تفطمه ينفطم
فاصرف هواها، وحاذر أن تولّيه ان الهوى ما تولّى يصم أو يصم
كم حسّنت لذّة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أنّ السم في الدسم
واستفرغ الدّمع من عين قد امتلأت من المحارم والزم حمية النّدم
وخالف النفس والشيطان واعصهما وان هما محضاك النّصح فاتّهم
ولا تطلع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

• • •

ومن شعراء تلك الفترة الذين اشتهروا بخط أخلاقي رفيــع في شعرهم ، الشاعر ابن الوردي ، واسمه الكامل هو : زين الدين عمر بن الوردي .. وقد ولد في سنة ٦٨٩ هجرية بمعرّة النعمان في بلاد الشام ، واستطاع أن يتفوق في العربية وأن ينظم الشعر رغم بعد الناس عن الأدب في عهده ، وقد توفي في حلب سنة ٧٤٩ هجرية .

وقد تميز ابن الوردي في شعره بالحكمة والدعــوة الى الفضيلة ، وأشهر قصائده تعرف « بلامية ابن الوردي » وكلها نصائح ودعوة الى الفضيلة .. وفيها يقول :

واتّق الله فتقوى الله مـــا جاورت قلب امرىء الاّ وصل
ليس من يقطع طرقاً بطــلاً انّما من يتّـــق الله البطل
كتب الموت عـــلى الخلق فكم فلّ من جيش وأفنى مـــن دول
أين نمـــرود وكنعان ومــــن ملك الأرض وولّـــى وعزل

أين من سادوا وشادوا وبنـــوا هلك الكل ولم تغن القلـــل
أين أرباب الحجى أهل النّهى أين أهل العلم والقوم الأول
سيعيـــد الله كـــلاً منهم وسيجزي فاعـــلاً ما قد فعل
أي بنيَّ اسمع وصايا جمعت حكماً خصّت بها خير الملل
أطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل
في ازدياد العلم ارغام العـــدى وجمـــال العلم اصلاح العمل

• • •

ومن مشاهير شعراء تلك الفترة كذلك الشاعر صفي الدين الحلّي ، الذي ولد سنة ٦٧٧ هجرية بالحلة من مدن الفرات ، ونشأ بها واتصل بملـــوك الدولة الأرتقية في ماردين ، ثم رحل الى مصر ، واتصل هناك بالسلطان الناصر بن قلاوون .. ثم انتقل بعد ذلك الى بغداد وتوفي بها سنة ٧٥٠ للهجرة .

كان صفي الدين متمكناً من اللغة ، ولكنه يعلن صراحة في شعره حرصه على تجنب ألفاظها الصعبة ، وميله الى ما رق من الكلام .. وكان يميل الى البديع في شعره . ومن أصدقائه من شعراء زمانه الشاعر ابن نباته الذي كان يتبادل معه الرسائل الشعرية المنظومة .

ومن أجمل ما نظمه صفي الدين الحلي هذه الأبيات في وصف الربيع ، والتي قال فيها :

ورّد الرّبيـــع فمرحباً بوروده وبنـــور بهجته ونـــور وروده

إلى أن يقول :

والورد في أعلى الغصون كأنّه ملك تحفّ بـــه سراة جنوده
والياسمين كعاشق قـــد شفّه جور الحبيب بهجره وصدوده

فانظر لنرجسه الشّهي كأنّـــه		طرف تنبّه بعد طول هجوده
وانظر الى المنظوم من منثوره		متنوّعــاً بفصولـــه وعقوده
أو ما ترى الغيم الرقيق وما بدا		للعين مـــن أشكاله وطروده
والسحب تعقد في السماء مآتماً		والأرض في عرس الزّمان وعيده
ندبت فشقّ لها الشّقيق جيوبه		وازرقّ سوسنها للطم خدوده

ولصفي الدين شعر كثير في المديح والفخر ، وقد حاول في كثير منه أن يعارض المتنبي ويسير على نهجه .

• • •

ومن شعراء تلك الفترة أيضاً الشاعر المعروف باسم (ابن نباته) واسمـــه الكامل هو : أبو بكر جمال الدين القرشي ، وقد ولد هذا الشاعر سنة ٦٨٦ للهجرة في ميّا فارقين ، ونشأ في مصر ، وكان كاتباً للسلطان حسن سلطان مصر آنذاك .. كما كان قبل ذلك في حماة كاتباً لأميرها الملك المؤيد . وقد توفي ابن نباته في مصر سنة ٧٦٨ هجرية .

وكانت تربط بين ابن نباته ومعاصره صفي الدين الحلي روابط صداقة ، وقد تبادلا الرسائل الشعرية المنظومة .

كان ابن نباتة كثير الشكوى من الفقر والشيب وكثرة الأولاد وقد عبّر عن ذلك في شعره . وهـــو كغيره من شعراء زمانه يعتمد على البديع والزخرف اللفظي في الشعر .. كما كان يميل الى الرقة ، ولكن اعتماده عـــلى البديع كان يصل الى درجة الحشو .. واللحن في بعض الاحيان .. وهذه من عيوب الشعر في تلك الفترة كلها بصفة عامة .

ومن شعر ابن نباته الذي ضمّنه شكواه قوله :

عفت الاقامة في الدنيا لو انشرحت حالي فكيف وما حظي سوى النكد!
وقد صدئت،ولي تحت التراب جلاً انّ التراب لجلاّء لكل صدى
لا عارفي أدبي ان لم ينل رتباً وانّما العار في دهري وفي بلدي
هذا كلامي وذا حظّي ، فيا عجباً منّي لثروة لفظ وافتقار يد

• • •

ثانياً : النثر :

لم يحدث في هذه الحقبة من تاريخ الأدب العربي أي تطور يذكر في أساليب النثر العربي أو في أجناسه.. بل تدهور الأسلوب ، وتوسع الكتاب كثيراً في الاعتماد على البديع والزخرف اللفظي ، الى درجة السخف والاسفاف ، وتداخلت العامية مع الفصحى ، وعلى المستوى الرسمي زاحمت التركية العربية ، لاعتماد الملوك والسلاطين على التركية لأنها لغتهم .. وقد أثر ذلك تأثيراً سيئاً جداً على أساليب النثر العربي . أما الأجناس النثرية فكانت امتداداً للقديم ، كالخطابة ، والرسائل ..

ولكن الظاهرة التي تستحق الاشادة بها ، وهي ملفتة للنظر حقاً في تلك الفترة ، هي ظهور مؤلفات أدبية وعلمية عظيمة ، وفي لغة عربية جميلة رفيعة المستوى ، لمؤلفين أصبحت لهم شهرة عالمية واسعة .. مثل ابن خلدون وابن بطوطة من المغرب العربي ، والقلقشندي ، والقزويني ، والسيوطي وابن خلكان وغيرهم من المشرق العربي .

من أعلام المؤلفين في تلك الفترة :

١ — ابن خلكان : وهو قاضي القضاء شمس الدين أبو العباس احمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان الأربلي ، ولد سنة ٦٠٠ للهجرة بمدينة اربيل،

وأقام بها حتى سنة ٦٢١ هجرية ، ثم رحل الى حلب ، ثم الى دمشق ، ثم انتقل الى مصر وأقام بها ، حيث تولى القضاء فيها .. ووضع كتاباً عظيم الفائدة في التراجم وتاريخ الأعيان وهو كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » . وتوفي ابن خلكان سنة ٦٨٠ هجرية رحمه الله . وقد تابع عمل ابن خلكان بعد وفاته محمد بن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٥ هجرية ، اذ ألف ملحقاً لكتاب « وفيات الأعيـان » أسماه « فوات الوفيات » . ثم أعقبه صلاح الدين الصفدي الذى ألف تكلة أخرى بعنوان : « الوافي بالوفيات » .

٢ ــ ابن خلدون : وهو علاّمة التاريخ ومؤسس علم الاجتماع الحديث، وله شهرة عالمية واسعة ، وهو : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، ولـد بتونس سنة ٧٣٢ هجرية .. وتلقى العلم منذ الصغر على يد والده أولاً ، ثم على بقية مشاهير علماء عصره وأقبل على قراءة الكتب العقلية والفلسفية . وكانت ثمرة علمه وتحصيله كتابه الشهير في التاريخ « كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر » .. وأهم ما في كتابه ذلك « المقدمة » التي تعتبر فتحاً جديداً في العلوم الانسانية ، بما اشتملت عليه من دراسات، اجتماعية عميقة وهامة ، وقد اهتم العلماء في كل لغات الدنيا بتلك الدراسات التي وضعها ابن خلدون والتي لا زالت محور بحث ودراسة حتى يومنا هذا .

أما من ناحية أسلوب ابن خلدون الأدبي ، فانه وان كان ملتزماً ببعـض قواعد المحسنات البديعية التي كانت شائعة في زمانه ، الاّ أنه يعتبر من أجمل الأساليب العلمية الأدبية في اللغة العربية ، خصوصاً في الزمن الذي عاش فيه ابن خلدون . وقد توفي ابن خلدون سنة ٨٠٨ هجرية رحمه الله .

٣ ــ القلقشندي : وهو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، وهو عربي الأصل ينتهي نسبه الى بني فزاره ، وقـد ولد بمصر سنة ٧٥٦ للهجرة ، ونشأ بها . وقد تولى ديوان الانشاء في عهد المماليك بمصر .

والقلقشندي عالم بحاثة له مؤلفات كثيرة عظيمة الفائدة ، تدل على مقدرته

العلمية ، منها « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » .

أما أهم كتب القلقشندي من الناحية الأدبية فهو كتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » وهو موسوعة ضخمة تشتمل على مقدمة ودراسات متنوعة في أسس الكتابة وما يلزم الكتاب .

وأسلوب القلقشندي من أحسن ما عرف في زمانه بعداً عن التكلف قدر المستطاع ، وله مقدرة علمية في البحث ، وطريقة مقبولة سهلة في العرض .

وقد توفي القلقشندي سنة ٨٢١ هجرية رحمه الله .

٤ ـ السيوطي : وهو العلامة الشهير عبد الرحمن جلال الدين بن الامام كمال الدين الخضيري السيوطي ، ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩ هجرية ، ونشأ يتيماً ، وكان يتمتع بذكاء فطري ومقدرة على الحفظ ، فحفظ القرآن الكريم كاملاً عن غيب وهو دون الثامنة من عمره . واتصل بكبار العلماء واجتهد في طلب العلم ، وبدأ يؤلف وهو في السابعة عشرة من عمره .

يعتبر العلاّمة السيوطي من أشهر علماء العربية وأغزرهم انتاجاً ، وله مؤلفات كثيرة في معظم فروع العلوم والأدب والدين واللغة . وتزيد مؤلفاته في عددها على الثلاثمائة مؤلف وكلها عظيمة الفائدة .

وقد توفي السيوطي رحمه الله سنة ٩١١ هجرية بالقاهرة رحمه الله .

٥ ـ المقريزي : أحد مشاهير من كتبوا في التاريخ ، والجغرافيا ، في تلك الحقبة من التاريخ ، واسمه الكامل هو : أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي.. وهو بعلبكي الأصل ، ولكنه ولد ونشأ في القاهرة ، وكان مولده سنة ٧٦٦ هجرية ، اتصل في مصر بالملك الظاهر برقوق ، ثم بولده الملك الناصر .

٦ ـ القزويني : أحد أهم من ألّف في علم الكائنات أي علم الهيئة ...

فوصف الشمس والقمر وبقية الكواكب .. كما وصف الكائنات الأرضية : المعادن ... والنبات ، والحيوان .. وكان ذلك في كتاب شهير أسماه: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» ، وله كتاب آخر شهير عنوانه : «آثار البلاد وأخبار العباد» وصف فيه البلدان والأقاليم . واسم القزويني الكامل هو : أبو يحيى زكريا بن محمد وهو من سلالة مالك بن أنس ، ولد سنة ٦٠٥ هجرية في قزوين .. وقد تنقل في شبابه بين الشام والعراق ، وتولى القضاء في مدينتي واسط والحلة ، وكان في منصبه ذلك حين سقطت بغداد تحت ضربات هولاكو . وتوفي القزويني رحمه الله سنة ٦٨٢ للهجرة .

٧ ــ الدميري : وهو من أشهر من ألّف في الحيوان ، وله في ذلك كتاب عظيم الفائدة اسمه «حياة الحيوان الكبرى» . وقد ولد الدميري سنة ٧٤٥ للهجرة في القاهرة ، واسمه الكامل هو كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري . وتوفي رحمه الله في القاهرة سنة ٨٠٨ هجرية .

وكتاب الدميري في الحيوان رتب ترتيباً يشبه ترتيب القاموس .. وقد شرح في ذلك الترتيب أسماء الحيوانات من الناحية اللغوية أولاً ، ثم تناولها بالوصف من ناحية الجسم والطبائع ثانياً .. وهذا دليل مقدرة علمية تنم عن عقلية تنظيمية كان يتمتع بها الدميري .

٨ ــ الأبشيهي : وهو صاحب كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» وهو كتاب شهير يحمل بين دفتيه الطرف والملح الأدبية وقصص العرب واستشهادات من القرآن والسنة ونتفاً من علوم عصره المختلفة .

وقد ولد الأبشيهي في مدينة ابشويه بمصر وتوفي سنة ٨٥٠ هجرية رحمه الله .

* * *

نماذج من أساليب ذلك العهد :

كتب القزويني في مقدمة كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات يشرح معنى الغريب .. فقال :

« الغريب كل أمر عجيب ، قليل الوقوع ، مخالف للعادات المعهودة، والمشاهدات المألوفة ، وذلك اما من تأثير نفوس قوية ، أو تأثير أمور فلكية، أو أجرام عنصرية ، كل ذلك بقدرة الله تعالى وارادته ، فمن ذلك معجزات الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كانشقاق القمر ، وانفلاق البحر ، وانقلاب العصا ثعباناً ، وكون النار برداً وسلاماً ، وخروج الناقة من الصخرة الصماء ، وابراء الأكمه والأبرص ، واحياء الموتى ...» .

أما الكتابة الأدبية فقد كانت – كما سبق أن أشرنا – تعتمد على المحسنات البديعية والتلاعب بالألفاظ ، الى درجة الركاكة ..

ومن أشهر من ألفوا كتباً مستقلة في الوصف الأدبي المحض : بدر الدين الحلبي المتوفي سنة ٧٧٩ هجرية ، الذي ألف كتاب « نسيم الصبا » في ثلاثين فصلاً في وصف الطبيعة والناس وأخلاقهم.وفي كتابه ذلك تظهر كل خصائص أسلوب النثر في تلك الفترة ، وأهمها الاعتماد الكلي على البديع .. وفي ذلك الكتاب يقول بدر الدين الحلبي في « السماء وزينتها » : –

« أيقظتني ليلة دواعي الهموم ، فنظرت في النجوم . فاذا السماء كأنها روضة مزهرة . أو صرح كنّس جواريه مسفرة . أو غدير تطفو عليه القواقع ... أو بنفسج نور أقاحه لامع ...» وهكذا كانت أساليب النثر وموضوعاته .. بهرج في الكلمات المترادفة ، وزخرف في اللفظ مع تلاعب بهذا الزخرف اللفظي ، دون امتاع معنوي حقيقي .

الأدب العربي في العصر الحديث

تمهيد :

بعد فترة طويلة من التخلف كان لا بد من حدوث أكثر من هزة عنيفة توقظ العرب من سباتهم ، وتثير في نفوسهم الحماس لينهضوا من كبوتهم ... وكان هذا هو ما حدث بالفعل في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي عندما رست بواخر القوات الفرنسية الغازية بقيادة نابليون في ميناء الاسكندرية ، بادئة حملة ضد مصر ، وضد الأمة العربية الاسلامية .. وكانت تلك أولى الهزات العنيفة التي أيقظت ضمير العرب والمسلمين ، فنهضوا على أثرها ينفضون غبار التخلف ، باحثين عن سبل الخلاص التي تمكنهم من اللحاق بمن سبقهم من الأمم أثناء تخلفهم .

وكما أن لكل حدث هام حسنات وسيئات ، فإن تلك الهزة العنيفة التي أحدثها غزو فرنسا لمصر قد جمعت بين الحسنات والسيئات ، فهي الى جانب ما أحدثته من يقظة خوفاً على الشخصية العربية الاسلامية ، فانها كانت بداية لأمور مستحدثة كثيرة لم تكن معروفة من قبل ، استخدمها العرب والمسلمون في سبيل احياء ثقافتهم المتوارثة من جهة ، وفي سبيل نقل ما لدى الغرب المتحضر من علوم حديثة من جهة أخرى .. فقد جلب نابليون معه المطبعة الى مصر ، وان هي الا فترة وجيزة فاذا بثمرات المطابع من صحف ، وكتب تمد الانسان العربي بزاد كان في أمس الحاجة اليه .

وللتاريخ لا بد أن نسجل أن بلاد الشام في سوريا ولبنان كانت قد عرفت

المطبعة قبل مصر بنحو مائة عام ، ولكن الطباعة في بلاد الشام كانت مثل مدارس الارساليات الأجنبية تحت سيطرة بعثات التبشير المسيحي .

ولأهمية مركز مصر في العالم العربي فان سنة ١٧٩٨ م التي بدأت فيها حملة نابليون على مصر تعتبر الانطلاقة الكبرى للعرب في مجالات النهضة الحضارية المختلفة .. ولعل من أهم الأسباب التي جعلت مصر قاعدة للانطلاق العربي نحو النهضة الحضارية ، وجود الجامع الأزهر في القاهرة ، وحرص علمائه على الثقافة العربية الاسلامية ، ومواجهتهم الغزو الصليبي الجديد بحماس اسلامي كبير ، وقد كسب الأزهر منذ زمن بعيد ثقة المثقفين العرب والمسلمين به ، خصوصاً وأنه ظل مركز اشعاع للفكر الاسلامي الأصيل .. أما بعد الحملة الفرنسية على مصر ، وعندما تولى محمد علي ، رحمه الله ، مقاليد السلطة في مصر فانه قد اجتهد في اطلاع العرب على حضارة اوروبا الحديثة ، دون أن يفقد العرب والمسلمون شخصيتهم الثقافية المستقلة .

وسار محمد علي بمصر في طريقين للنهضة :

الأولى .. هي ارسال البعثات العلمية الى فرنسا ، والثانية .. تمثلت في تأسيس المدارس ونشر العلم الحديث ، وترجمة الكتب المفيدة في الداخل ، بالاضافة الى اصدار الصحف العربية .

وكان أشهر أعضاء أولى بعثات محمد علي الى فرنسا الشيخ رفاعة الطهطاوي ، الذي كان أوّلاً اماماً لتلك البعثة ، ثم أصبح باجتهاده أبرز أعضائها ، وترجم كثيراً من الكتب في الأدب ومختلف العلوم الى العربية ، وأسس مدرسة الترجمة الحديثة في اللغة العربية ، وتعتبر اسهاماته من أهم روافد الأدب العربي الحديث .

أما في بلاد الشام فلقد نشطت أوروبا المسيحية في تأسيس مدارس ارساليات وبعوث التبشير المسيحي هناك ، حتى بلغ عدد تلك المدارس في سنة ١٨٦٠ م

في لبنــان وحده ثلاثاً وثلاثين مدرسة ، ويعتبر المسيحيون اللبنانيــون رواد الصحافة العربية ، حتى في مصر ، التي أسس فيها سليم وبشارة تقلا ، وهما لبنانيان مسيحيان، جريدة الأهرام في الاسكندرية سنة ١٨٧٥م ، كما أسس فارس نمر ويعقوب صروف ، وهما لبنانيان أيضاً ، جريدة « المقطم » سنة ١٨٨٩ م في القاهرة .

والى جانب انتشار الصحافة في بلاد الشام ومصر في القرن التاسع عشر الميلادي ، قامت لأول مرة في أوائل القرن العشرين الميلادي جامعات عربية عليا نهضت بأمور التعليم والبحث العلمي ، وكانت لها اسهاماتها الايجابية في مجال الأدب والفكر . ومن أهم تلك الجامعات الجامعة المصرية الأهلية التي تأسست سنة ١٩٠٦ م بالقاهرة ، وهي النواة الأولى لجامعة القاهرة الحالية ، وكان أول من تحصل على درجة الدكتوراه منها عميد الأدب العربي الحديث الدكتور طه حسين رحمه الله .

•••

الملامح العامة للأدب الحديث

أولاً : النثر :

مع بداية دخول العرب ما يسمى بالعصر الحديث في القرن التاسع عشر الميلادي ، وبعد اطلاعهم على أساليب الأدب عند الأمم المتحضرة ، واهتمام أدباء تلك الأمم بمشاكل الانسان وحياته العامة ، بدأوا يمارسون بعض ألوان التجديد ، متحررين شيئاً فشيئاً من قيود الماضي المتمثلة في المحسنات اللفظية والبهرج اللفظي البعيد عن معالجة الأمور الحيوية ، لأنه كان ينحصر في تقليد

القدماء والسير على نهجهم بمعزل شبه تام عن الأحداث اليومية للانسان المعاصر .. وقد ساعد على هذا التحرر في الأسلوب ، وسائل النشر الحديثة في الصحف السيارة التي كانت تهتم بأمور الحياة العامة في معالجة أدبية .

ومن يدرس الآثار الأدبية النثرية في القرن التاسع عشر الميلادي يجد أنها كانت تدور في ثلاثة أفلاك هي : اولاً : فلك الجمود والمحافظة على القديم بكل ما فيه بدون تحرك نحو التجديد ، والثاني : فلك التجديد المعتدل بحذر في محافظة على تراث العربية وجمالياتها الأصيلة وبعث كل ما هو قوي فيها ومن أعلام هذا الاتجاه الشيخ ناصيف اليازجي ، أما الفلك الثالث فهو التجديد بدون تحفظ وكان أبرز أعلام هذا الاتجاه أولئك الذين كتب لهم أن يخرجوا من البلدان العربية ويجوبوا الآفاق مثل رفاعة الطهطاوي من مصر ، وأحمد فارس الشدياق من لبنان ، ثم جاءت بعد ذلك جماعة المهاجرين الى أمريكا وأسست مدرسة تجديدية متطرفة تزعمها هناك جبران خليل جبران ، الذي تشبع بالثقافة الغربية ، وراح يحاكي أساليبها الفنية في الأساليب الأدبية ، متحرراً من كل قيد ، فجاء بأنماط وأجناس أدبية جديدة تماماً .

أجناس نثرية جديدة :

ومع بداية اتصال العرب بأوروبا في العصر الحديث اطلعوا على أجناس أدبية جديدة لم تكن معروفة في الأدب العربي من قبل ، أو كانت معروفة في قوالب قديمة فأحدثوا فيها تجديداً غير مألوف من قبل .

ومن الأجناس الأدبية التي تعرّف عليها العرب لأول مرة في القرن التاسع عشر الميلادي جنس الأدب المسرحي ، وأول من وصف المسرح في اللغة العربية الشيخ رفاعة الطهطاوي رحمه الله ، الذي كتب في كتاب « تخليص الابريز في تلخيص باريز » يقول : « إعلم أن هؤلاء الخلق حيث انهم يقضون

حياتهم في الأمور الدنيوية واللهو واللعب ، ويتفننون في ذلك تفنناً عجيباً ، فمن مجالس الملاهي عندهم مجالس تسمى التياتر« Le theatre » بكسر التاء المشدّدة ، وسكون التاء الثانية ، والسبكتاكل « Le spectacle » ، وهي يلعب فيها تقليد سائر ما يقع . وفي الحقيقة أن هذه الألعاب هي جدٌّ في صورة هزل ، فان الانسان يأخذ منها عبراً عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائـــر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى وذم الثانية ، حتّى أن الفرنسيين يقولون : انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها ، فهي وان كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات . ومن المكتوب على الستارة التي ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاتينية ما معناه بالعربية : « قد تصلح العوائد باللعب » ومضى رفاعة يصف المسرح وما يدور فيه واثنى على كبار ممثـــلي زمانه في فرنسا ، وقال : « فربّما كان لهم كثير من التآليف الأدبية والأشعار » .

وبعد التوسع في مجال الاتصال بأوروبا والاطلاع على آداب لغاتها المختلفة ، نقل العرب كثيراً من روائع المسرح الأوروبي الى العربية ، وكانت تلـــك الترجمات ومحاكاتها أساساً للأدب المسرحي ، الذي لا زال يعتبر من الأجناس الحديثة جداً في الأدب العربي .

والى جانب الأدب المسرحي كان جنس القصة في صورهـــا الحديثة ، كالرواية والقصة القصيرة ، والأقصوصة وهي من الأجناس التي تعرّف عليهـا العرب من خلال اطلاعهم على الآداب الأوروبية ، فربطوا بينها وبين المقامات القديمة التي عرفت في الأدب العربي منذ العصر العباسي .

وتطورت الخطابة خصوصاً في المجالات السياسية وفي معارك التحريـــر والاستقلال التي خاضها العرب ضد الاستعمار في كثير من البلدان العربية .

وبدأ جنس القصة في الأدب العربي الحديث بالترجمات التي كانت تنتشر

على أوسع نطاق في المجلات والصحف الأدبية مثل «الجنان» لبطرس البستاني، و«الهلال»، و « منتخبات الروايات » لاسكندر كركور التي كان يصدرها في القاهرة سنة ١٨٩٤ م .

ثم بدأ بعد ذلك عهد المحاكاة والبناء المزدوج الذي يزاوج فيه الأدباء بين المقامة وأساليب القصة الحديثة ، كما فعل المويلحي في « حديث عيسى بن هشام» وكما فعل حافظ ابراهيم في « ليالي سطيح » ، وكما فعل محمد لطفي جمعه في « ليالي الرّوح الحائر » .

ثم بدأ عهد القصة العربية الحديثة في صورها القوية الأصيلة وذلك بمولد قصة الأديب المصري الدكتور محمد حسين هيكل « زينب » التي صور فيها لأول مرة حياة الريف المصري، وعالج مشاكل الانسان العربي المعاصر في تلك البيئة بأسلوب قصصي ممتاز حديث . وقصة « زينب » كما يجمع جميع النقاد هي أول قصة في الأدب العربي الحديث اجتمعت فيها عناصر القصة واكتملت في أسمى صورها المتعارف عليها عند النقاد العالميين . وما أن فتح هيكل رحمه الله الباب حتى دخل بعده الى هذا الميدان الفسيح عشرات الأدباء من كتاب القصة في ألوانها المختلفة : التاريخية مثل جرجي زيدان ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم، والمازني ، ونجيب محفوظ ، وعبد الحليم عبد الله .. وغيرهم ..

وبالاضافة الى التجديد في الأدب في أجناسه المباشرة ظهرت الكتابة النثرية في مجالات العلوم القريبة من الأدب مثل : كتابة التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس .

وأعظم ما خدم التطور في ميادين الأدب العربي الحديث هو ما حدث من تقدم كبير في دراسات الأدب والنقد الأدبي خصوصاً في مصر وبلاد الشام. فقد ظهرت مدارس كثيرة تنافس بعضها البعض مثل : مدرسة الديوان وأقطابها الأساتذة : عباس محمود العقاد ، وعبد الرحمن شكري ، وابراهيم

عبد القادر المازني رحمهم الله ، ومدرسة أبولو في الشعر ونقد الشعر وكان مؤسسها احمد زكي أبو شادي الذي هاجر فيما بعد الى أمريكا ، رحمه الله.

وتطورت أساليب النقد ومذاهبه وقاد حملة التطور الأكاديمي في الدراسات الأدبية والنقدية الدكتور طه حسين رحمه الله الذي كان أكثر الناس حماساً لتنظايم هذه الدراسات ... الا انه أثار بشكوكه موجة من الغضب ضده ، ومهما قيل عنه فهو قد أسهم بجهد جبار مشكور في تطوير أساليب الأدب والنقد وتنظيم دراساتهما في الجامعات العربية على أسس علمية صحيحة .

ومن أشهر من جاء بعد طه حسين في مجال الدراسات الأدبية المنظمة الدكتور شوقي ضيف في مصر ، وأنيس المقدسي في بلاد الشام ، ومارون عبود في لبنان .

واستطاعت المرأة أن تبرز في العصر الحديث في عالم الأدب والدراسات الأدبية ، وأشهر المجددات في الأدب العربي الحديث الآنسة مي زيادة أو ماري زيادة . وهي من أب لبناني وأم فلسطينية وانتقلت مع عائلتها بعد ذلك لتعيش في مصر وكان لها مجلس أدبي أسبوعي يحضره كبار أدباء عصرها ومن أبرزهم أحمد شوقي وعباس محمود العقاد رحمهما الله ، وكانت الآنسة مي زيادة تتمتع بثقافة رفيعة المستوى جداً وكانت تجيد عدداً من اللغات الأوروبية ، كما كانت تكتب بأسلوب ناعم رقيق فيه كل ملامح التجديد .

ثانياً : الشعر :

أثرت الصحوة الكبرى في المشرق العربي في الشعر تأثيراً كبيراً ، فراح الأدباء الشعراء يسخّرون شعرهم لخدمة قضايا الوطن والاستقلال ، والدفاع عن المقدسات ، والأرض . واتجه الشعراء أول ما اتجهوا الى تراث أسلافهم

الشعري مستلهمين من روائعه ما يثير حماسهم وحماسة بني أمتهم .. فكانت أولى مدارس الشعر العربي في مطلع العصر الحديث مدرسة بعث التراث التي كان رائدها الأول الشاعر المصري الشهير محمود سامي البارودي رحمه الله.. ومن أبرز صفات تلك المدرسة التخلي عن البهرج والتلاعب بالألفاظ والمحسنات البديعية ، والاتجاه الى المعاني القوية ، والاهتمام بجوهر الأمور ، ومعالجة قضايا الساعة في شعر جزل ، قوي الألفاظ ، واضح المعنى ، فيه من الصفاء ، واستقامة اللفظ وحسن التعبير ما يذكر بشعراء العربية في عصورها الزاهية .

وكما كان البارودي رحمه الله في مصر يهتم باحياء التراث الشعري القديم في صوره القوية الفخمة والصافية ، فقد نهض بهذه المهمة في بلاد الشام ناصيف اليازجي، وفي الحجاز الشيخ ابراهيم الاسكوبي رحمه الله، وفي نجد والأحساء الشيخ احمد بن مشرف رحمه الله .

ولكن ما أن اتسع انفتاح العرب على أوروبا حتى بدأت تظهر في دنيا الشعر العربي مدارس تجديدية كثيرة وصلت في بعض الأحيان الى درجة كبيرة من التطرف ، اذ رفض أصحابها كل قيود الشعر العربي من وزن وقافية وجاؤوا بكلام أسموه «الشعر المنثور» تصدى له بضراوة أنصار العربية الفصحى خوفاً على تراثها من أن تنال منه يد التلاعب باسم التطرف في التجديد .. ومع هذا وجد هذا اللون الجديد أنصاراً له حتى في أوساط من أجادوا الشعر الفصيح وتمكنوا منه مثل محمد حسن عواد في جدة .

وفي المهجر الأميركي ظهرت ألوان جديدة من الشعر الوجداني الرقيق، وشعر الوصف ، وشعر العاطفة والخيال المجنح ، في تجديد معتدل .

ومن ألوان التجديد التي تبدو مقبولة في الشعر العربي شعر التفعيلة المبعثرة، وهو شعر يقوم على وحدة الشعر العربي الأساسية الا أنه لا يلتزم بقيود البحر

الواحد والقافية الواحدة .. ومن أنصار هذا الشعر وأعلامه المجيدين فيه فدوى طوقان ، ونازك الملائكة ، ونزار القباني .

ومن أشهر الشعراء المعاصرين شاعر من تونس في شمال أفريقيا هو أبو القاسم الشابي ، الذي لمع كنجم ساطع ثم أفل وهو في ريعان الشباب ، بعد أن حطمه المرض . وقد قدم الشابي من رحيق وجدانه ، وذوب عاطفته ، ومعاناته شعراً عربياً فيه الكثير من ملامح التجديد المعتدل الذي لا يهدم قواعد اللغة العربية ولا نظام الشعر العربي الجميل .

وأشهر شعراء النصف الأول من القرن العشرين أحمد شوقي رحمه الله ، الذي أجمع معاصروه على تلقيبه بأمير الشعراء ، وتميز بنزعته الى التجديد في الموضوعات ، والأجناس الأدبية الشعرية ، حيث كان أول من نظم الشعر المسرحي في قوالب الشعر العربي وبحوره المعروفة ، فأثبت بذلك قدرة هذه الأوزان على استيعاب كل جديد . ومع أحمد شوقي برز حافظ ابراهيم الذي نظم رحمه الله في الموضوعات الاجتماعية محافظاً على أوزان الشعر وبحوره القديمة أيضاً ، مؤكداً قدرة هذه البحور والأوزان على التعبير واستيعاب كل جديد وعصري اذا تمكن منها الشاعر .

ومن أشهر شعراء العصر الحديث في العراق الشاعران : جميل صدقي الزهاوي ،ومعروف الرصافي..وازدهر الأدب في نثره وشعره في جميع البلدان العربية خصوصاً بعد أن تحررت من حكم الاستعمار الأجنبي فنالت استقلالها.

• • •

نماذج من الأدب العربي الحديث

أولاً : من الشعر :

لعل أشهر شعراء النهضة في بداية العصر الحديث هو : الشاعر محمود سامي البارودي الذي ولد في القاهرة سنة ١٨٣٨ م وعاش بداية حياته يتيماً ، ولكن ذويه اعتنوا بتربيته وتعليمه ، وتمكن من الالتحاق بالكلية الحربية .. وبعد تخرجه سافر في عهد اسماعيل باشا الى القسطنطينية « اسطانبول » عاصمة الخلافة العثمانية آنذاك .. كما أتيحت له الفرصة لزيارة بريطانيا وفرنسا .. ثم نفي الى جزيرة سرنديب « سيلان » .

تزود البارودي منذ عهد مبكر بزاد ثقافي ممتاز ، وأحب الشعر وأكثر من حفظه حتى تمكن من نظمه .. وله مختارات شهيرة من شعر الجاهليين والقدامى .. كما عني ببعث تراث العرب في مجال الشعر فكان أبرز من أخرجوا الشعر من الركاكة الى القوة وأعادوا له وجهه المشرق في صوره القديمة في عصوره الزاهية .. وله شعر وطني كثير يعبر عن صدق شعوره وحرارة عاطفته نحو وطنه وأمته .. كما له شعر وجداني يعبر عن حسه المرهف .. ومن جميل شعره المتدفق من وجدانه ما نظمه في منفاه حين ذعر بخبر وفاة زوجته في الوطن .. فقال والحزن يعتصر قلبه :

يا دهر فيم فجعتني بحليلة	كانت خلاصة عدّتي وعتادي
ان كنت لم ترحم ضناي لبعدها	أفلا رحمت من الأسى أولادي
ومن البلية أن يسأم أخو الأسى	رعي التجلّد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحي	ألماً لبعدك ، أو يلين مهادي

وأبرز ما يميز البارودي في شعره بعثه القوة في شعر عصره وجمعه الموفق بين روح التجديد في قالب عصري وبين الحفاظ على تراث الأقدمين وبعث ذلك التراث. رحم الله الشاعر العظيم محمود سامي البارودي .. وقد توفي بمصر سنة ١٩٠٤ م .

* * *

أمّا أشهر شعراء العربية في النصف الأول من القرن الميلادي العشرين الحالي فهو أحمد شوقي ، الذي لقب باسم أمير الشعراء . وهو أشهر من أن يوصف.. وقد ولد رحمه الله في القاهرة سنة ١٨٦٨ م ، وكان في دمه يجمع بين ثلاثة عناصر هي العربية والتركية واليونانية . وقد نشأ وترعرع في قصر خديوي مصر فتلقى أرقى ما يمكن أن يتلقاه أبناء عصره من علوم .. وزار كثيراً من بلدان أوروبا وتركيا . وعندما خلع الانجليز الخديوي عباس حلمي باشا نفي شاعره أحمد شوقي الى اسبانيا ، فكانت تلك فرصة للشاعر وقف فيها على آثار العرب المسلمين في بلاد الأندلس وسجلها في شعره .

وبعد عودة شوقي الى مصر أخذ يشارك الناس آلامهم وأحاسيسهم في شعره. ولكن أبرز ما يميز شوقي في شعره نزعته الى التجديد في الموضوعات بل والأجناس الشعرية دون اخلال بأوزان الشعر العربي ونظام بنائه الموسيقي القديم .. فهو مثلاً أحد القلائل جداً الذين نظموا الشعر المسرحي ولكن في قالب شعري سليم من الناحية العروضية ودون أدنى خلخلة للبناء الشعري القديم . وهذه مقدرة فائقة تميز شوقي الشاعر العظيم رحمه الله .

وما أكثر ما كتب النقاد والمؤرخون عن شوقي وشعره وديوانه المسمى « الشوقيات » ومع هذا فهو لا يزال يمثل مادة ثرّة تستحق الدراسة والبحث . ومن أشهر شعره المسرحي « مصرع كليوبترا » التي تعتبر من وجهة نظر دارسي الأدب المقارن تأثراً عكسياً بما كتبه الأوروبيون من أمثال شكسبير

حول هذه المرأة الشرقية المصرية اذ حاول شوقي أن يرد على تهم أولئك ويثبت ان « كليوبترا » كانت حاكمة مصرية وطنية مخلصة ولم تكن امرأة لعوباً كما صورها أدباء الغرب .. بل أنه يجعل « انطونيوس » قيصر روما يعترف بعد انتحار « كليوباترا » بأنها استخدمت سلاح جمالها في أسر قلبه ، حتى عادته روما كلها ، التي يجعله شوقي الشاعر يخاطبها بعد مصرع كليوباترا فيقول على لسان أنطونيوس :

لولا الجمال وفتنة من سحره	ما حل في قلبي هوى لسواك
صفحاً كلوبترا فربّت زلّة	قد كنت تغتفرين حين أراك
لمّا لقيتك في الجمال وعزّه	قهرت قواي الظافرات قواك
فنسيت في ناديك ذكر وقائعي	وسلوت أيّامي بيوم لقاك
سجدت لأعلامي الصوارم والقنا	وأبى مهنّد لحظك الفتّاك
قدت الجحافل والبوارج قادراً	ما لي ضعفت فقادني جفناك
أخرجت أمري واختياري من يدي	وتركتني نفساً بغير ملاك
خلت السلامة في نواك فذقتها	فاذا الكوارث كلّهنّ نواك

• • •

ومن مشاهير شعراء تلك الفترة كذلك من معاصري أحمد شوقي ، الشاعر حافظ ابراهيم .. الذي لا يكاد يذكر اسم شوقي الا ويذكر اسمه معه .. وقد تفوق على شوقي في شعر العاطفة والوجدان ، وخصوصاً في المواضيع الاجتماعية والانسانية العامة ، لأنه كان في نشأته وحياته واحداً من عامة الناس ، فكان شعره ينبع من معاناة ذاتية صادقة .. فهو وان كان أقل شأناً من شوقي في الجزالة والقوة الشعرية في نظر بعض النقاد ، الا أنه أكثر منه

التصاقاً بحياة الناس وأقدر منه تعبيراً عن همومهم وآلامهم وآمالهم وطموحهم وقد زادته تجارب الحياة المريرة قدرة على الاجادة في هذه الميادين .

ولد حافظ ابراهيم ، رحمه الله سنة ١٨٧١ م في « ديروط » احدى مدن الصعيد ، ونشأ يتيماً في كنف خاله في القاهرة واجتهد خاله في تعليمه ، وعند نقل الخال الى طنطا نقل ابن أخته معه .. وهناك أكب حافظ ابراهيم على المطالعة ، وأكثر من قراءة كتب الأدب والشعر بصفة خاصة حتّى تمكن من نظمه .. وحاول الاشتغال بالمحاماة بدون سابق دراسة في مجالها ولكنه فشل ، ثم اتجه الى الحياة العسكرية ، ولكنه بعد أن أرسل الى السودان في مهمة عسكرية طلب احالته على المعاش . وعاش في ضنك وضيق الى أن اتصل سنة ١٩١١ بأحمد حشمت باشا الذي اختاره ليعمل رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب ، فارتاح بعد ذلك نفسياً ومادياً الى أن توفي سنة ١٩٣٢ م رحمه الله .

كان حافظ ابراهيم في شعره يعبر عما تجيش به نفسه من أحاسيس لا عن ما يكتنزه من ثقافة مثل معاصره أحمد شوقي .. وكان يواكب الحياة اليومية . فهو مثلاً يتحدث عن الغلاء الفاحش وارتفاع تكاليف المعيشة وما سببه ذلك من ضنك وضيق للفقراء في عصره فيقول :

أيّها المصلحون ضاق بنا العيـ ... ـش ولم تحسنوا عليه القياما
عزّت السلعة الذّليلة حتّى ... بات مسح الحذاء خطباً جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا ... قوت حتّى نوى الفقير الصياما
ويخال الرغيف في البعد بدراً ... ويظن اللحوم لحماً حراما

* * *

وكان حافظ ابراهيم رحمه الله طيب القلب يتحدث بصراحة عن نشأته الفقيرة المعدمة ، فيقول :

قضيت عهد حداثتي ... مما بين ذل واغتراب
لم يغن عني بين مشر ... قها ومغربها اضطراب
صفرت يدي فخولها ... رأسي وجوفي والوطاب
لم يبق من أهلي سوى ... ذكر تناساه الصحاب

• • •

وهذه الأبيات قالها حافظ ابراهيم رحمه الله على لسان يتيم في الجمعية الخيرية الاسلامية التي تأسست في مصر سنة ١٩١٩ م ، ولكنها تعبر بحرارة عن نشأته هو حيث نشأ يتيماً معدماً .. رحمه الله .

وكان حافظ ابراهيم ، بالاضافة الى تعبيره عن آلام الناس وآمالهم ، وطنياً متحمساً لوطنه وعروبته واسلامه ، دافع عن حقوق أمته ، وعبر عن رغبة المصريين في الاستقلال عن حكم الاستعمار الأجنبي ، ودافع عن لغة القرآن ، ولحافظ ابراهيم قصيدة شهيرة في الدفاع عن العربية الفصحى أمام دعاوى أعدائها من غير العرب ، ومن سار في ركابهم من العرب ، وفيها يقول ، رحمه الله ، على لسان العربية الفصحى :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب ، وليتني ... عقمت ، فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالاً ، وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن   فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فيـــا ويحكم أبلى وتبلى محاسني   ومنكم وان عز الدواء أساتي؟!

• • •

وكما أجاد حافظ ابراهيم في مصر ، في التعبير عــن شعور عامة الناس وآلامهم ، فقد أجاد شعراء عرب آخرون في هذه الموضوعات كذلك في أقطار عربية أخرى .. ومن أولئك – على سبيل المثال – الشاعر العراقي الشهير معروف الرصافي رحمه الله ، الذي خاض بشعره معارك الحياة اليومية للانسان العربي المعاصر فصور ما يعانيه هذا الانسان ، وما يتطلع اليه في شعر صادق العاطفة نابع من وجدان كله صفاء .

والرصافي ولد سنة ١٨٧٥ م في بغداد ونشأ بها طالباً مجداً ، انتقل الى مجال التدريس بعد اتمام دراسته ، وانتخب عضواً في مجلس « المبعوثان العثماني » في عاصمة الخلافة اسطانبــول « القسطنطينية » .. وعضواً في مجلس النواب العراقي ، وكان من أبرز أعيان المجتمع ، ولكنه اعتزل حياة الوظيفة وقضى أواخر حياته في القراءة والاطلاع ونظم الشعر فقط .

وكان في شعره الاجتماعي يحلم بمثاليات اخلاقية تعبر عن حبه للانسانية وكراهيته للحقد والظلم .

ومن شعره الاجتماعي المعبر عن رقيق شعوره وصفاء نفسه وحبه للقيم والأخلاق الفاضلة قصيدة نظمها بعنوان « الأرملة المرضعة » حكى فيها قصة امرأة بائسة تفطر لها قلبه حزناً .. وقال فيها :

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها   تمشي وقد أثقل الاملاق ممشاها
أثوابهــا رثّة والرجل حافية   والدمع تذرفه في الخد عيناها

بكت من الفقر فاحمرّت مدامعها واصفرّ كالورس من جوع محيّاها
مات الذي كان يحميها ويسعدها فالدّهر من بعده بالفقر أشقاها
الموت أفجعها والفقر أوجعها والهمّ أنحلها والغمّ أضناها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآة مقرون بمرآها
كرّ الجديدين قد أبلى عباءتها فانشقّ أسفلها وانشق أعلاها
ومزّق الدهر، ويل الدهر، مئزرها حتّى بدا من شقوق الثوب جنباها
تمشي بأطمارها والبرد يلسعها كأنه عقرب شالت زباناها
حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفاً كالغصن في الريح واصطكت ثناياها
تمشي وتحمل باليسرى وليدتها حملاً على الصدر مدعوماً بيمناها
ما أنس لا أنس أني كنت أسمعها تشكو الى ربّها أوصاب دنياها
تقول : يا رب! لا تترك بلا لبن هذي الرّضيعة وارحمني وايّاها
يا ربّ! ما حيلتي فيها وقد ذبلت كزهرة الروض فقد الغيث أظماها

• • •

لقد كان الرصافي شاعراً مرهف الحس مخلصاً في حبه لأخيه الانسان حتّى توفي سنة ١٩٤٥ م .. ومن مميزاته أنه جدد في الموضوعات دون أن يغير في نظام بناء الشعر العربي وبحوره وأوزانه .

• • •

ومن أبرز شعراء العاطفة الصادقة والوجدان الشاعر التونسي الشهير أبو القاسم الشابي ، الذي اشتهر بمقدرته على تصوير آلامه ومعاناته في شعر بالغ الرقة والتأثير .. وهو من أعظم المجددين في الشعر..وتجديده كان عن بصيرة

وفهم ، ومقدرة وتمكن .. لم يهدم اللغة ، ولم يحارب التراث ، ولكنه أتى بالجديد في اطار احترام للمتوارث .

ولد أبو القاسم الشابي ، رحمه الله ، بمدينة توزر التونسية سنة ١٣٢٧ هجرية ١٩٠٩ م « في ضاحية الشابية » وكانت حياته رحمه الله مليئة بالشقاء والألم ، مترعة بالأسى والحزن ، والتعاسة والحرمان . اذ ظل يحارب المرض ، وعاش مرض والده ووفاته ، وتيتم اخوته الصغار ، وقد أحدث ذلك في قلبه واحساسه جرحاً لم يندمل قط حتى وفاته هو .

والى جانب شعر الوجدان والتعبير عن الألم ، وشقاء الانسان ، وأمل الانسان في السعادة ، نظم الشابي بحرارة وحماس في الوطنية والمناداة بالاستقلال والتحرر من ربقة الاستعمار الأجنبي البغيض .

ويذكر الأستاذ محمد كرو في كتابه « الشابي .. حياته وشعره » أن وفاة الشابي كانت في فجر يوم الثلاثاء التاسع من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٤م وهو في ريعان شبابه وقمة طموحه رغم تمكن المرض منه وتحطيمه لقواه الجسمية رحمه الله ، بالاضافة الى معاناته النفسية السابقة بعد موت والده .

والشابي في شعره يبدو قوياً دائماً رغم تمكن الألم منه ، الا أنه يظل يصارعه متمسكاً بحقه في الحياة ورغبته في العطاء بكل ما يتمنى أن يسهم به من عطاء .

ولعل أصدق ما عبّر عن خط الشابي في حياته القصيرة التي نظمها في موت أبيه وأسماها « الإيمان بالحياة » كما نشرها في مجلة « أبولو » بمصر سنة ١٩٣٤ م ، وكما يذكر محمد كرو في كتابه عن الشابي ؛ أما في ديوانه فقد نشرت هذه القصيدة بعنوان « الاعتراف » وفيها يقول :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ... ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة ، وأحتسي ... من كأسها المتوهج النشوان

وأعود للدنيـــا بقلب خافق | للحب والأفـــراح والألحان
ولكل ما في الكون من صور المنى | وغرائب الأهـــواء والأشجان
حتى تحرّكت السنون وأقبلت | فتن الحياة بسحرها الفتّان
فاذا أنا طفل الحياة المنتشي | شوقاً الى الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها | ضرب من البهتان والهذيان
ان ابن آدم في قرارة نفسه | عبد الحيـــاة الصادق الايمان

• • •

ومن أهم مدارس التجديد واتجـــاهاته في الشعر العربي الحديث مدرسة شعراء المهاجر في الأمريكتين ، الشمالية والجنوبية ، التي كان لها تأثير كبير في أدباء المشرق في النصف الأول من هذا القرن .. أما الآن فقد تلاشت تلك المدرسة تدريجياً بعد موت فحول شعرائها،وعدم اهتمام الأجيال الجديدة هناك بأدب اللغة العربية التي لم يولدوا في أجوائها من جهة،وتوقف هجرة الأدباء من المشرق من جهة ثانية .

وقد بدأت الهجرة من بلاد الشام ، وفي بعض الأحيان من مصر والعراق الى الأمريكتين منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي .. وما أن بدأ القرن الميلادي العشرين حتى أصبح لأولئك المهاجرين العرب صوتهم المسموع في دنيا الأدب العربي يأتي على البعد حاملاً شوق وحنين المهاجرين وحبهـــم لأوطانهم التي رحلوا عنها .

ومن أبرز ما تميز به شعر أولئك المهجريين اتجاههم نحو التهويم النفسي والخيال المجنح في « رومانسية » حالمة .. وقـــد أبدع أولئك المهجريون في المواضيع الجديدة التي خاضوها بشعرهم الذي كانوا يتغنون في انتقاء ألفاظه وتنسيقها في زركشة جديدة لم تعرف من قبل .

وأصدر المهجريون صحفاً عربية في مهاجرهم نشروا على صفحاتها شعرهم المحلق في عوالم الوجدان والتأمل والتهويم النفسي ، أو في دنيا الوصف لجمال الطبيعة ومحاسنها الفاتنة .

كما أسس المهجريون جمعيات تجمعهم وتعبر عـن اتجاهاتهم الأدبية ، وأشهر تلك الجمعيات في أمريكا الشمالية « الرابطة القلمية » ، التي تأسست في نيويورك سنة ١٩٢٠ م واستمرت حتى سنة ١٩٣١ م ، اذ اضمحلت بعد أن مات عميدها جبران خليل جبران وأعقبه رشيد أيوب ، والياس عطا الله ، ونسيب عريضة ، ثم ندرة حداد ، فوليم كاتسفليس . ثم وديع باحوط ، وأخيراً ايليا أبو ماضي ، وكان من أعضاء الرابطة أيضاً ميخائيل نعيمة الذي عاد بعد وفاة عميد الرابطة جبران الى قريته اللبنانية « بسكنتا » .

ومن أشهر شعراء الرابطة القلمية في أمريكا الشمالية عميد الرابطة جبران خليل جبران الذي كان يتمتع بمواهب كثيرة كان الشعر واحداً منها ، وان كانت كتاباته النثرية من ناحية الكم والكيف أكثر من انتاجه الشعري ، الذي ليس له فيه سوى ديوان واحد ، هو «الكواكب والمواكب» وهو يحمل فلسفة جبران في الحياة ، وأسلوبه في الأدب ومنهجه في الفن .

و« المواكب » ، التي تمثل النصف الثاني من اسم الديوان الشعري الوحيد لجبران ، هي قصيدة طويلة نظمها جبران سنة ١٩١٨ في مائتين وثلاثة أبيات ، وجعلها على لسان شخصين من الحياة : أحدهما شيخ عجوز خارج مـن المدينة ، بعـد أن أثقلته همومها وآلامها ، والثاني فتى عاري ، يملأ المرح جوانب نفسه ، وهو خارج من الغاب ، يعزف على أنغام السعادة الأزلية ، المطلقة .

لقد صور جبران في « المواكب » المجتمع بكل ما فيه ، وحاول أن يقوده بحس الفنان الى مدارج الجمال وينابيع الخير والمحبة .. فجعل الشيخ العجوز

الخارج من المدينة رمزاً للحياة الواقعية الظالمة ، والفتى العاري الخارج من الغاب يرمز للحياة الصافية بما فيها من جمال وحب وعناصر خير .

ويقول جبران في بداية «المواكب» على لسان الشيخ العجوز :

الخير في الناس مصنوع اذا جبروا   والشر في الناس لا يفنى وان قبروا
وأكثر الناس آلات تحركها   أصابع الدهر يوماً ثم تنكسر
فأفضل الناس قطعان يسير بها   صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

ويجيب «الفتى العاري» الخارج من الغاب على ما قاله الشيخ العجوز ، يؤكد أن حياة الغاب صافية لم تعكرها أطماع البشر فيقول :

ليس في الغاب راع   لا ولا فيها القطيع
فالشتا يمشي ولكن   لا يجاريه الربيع
أعطني الناي وغنّ   فالغنا يرعى العقول
وأنين الناي أبقى   من مجيد وذليل

لقد حارب جبران طوال حياته بفنه : شعره ،ونثره، ورسمه ، كل أنواع الظلم والتوحش ، ودعا الى المحبة والتسامح . وقد ولد جبران في قرية من قرى الأرز بشمال لبنان سنة ١٨٨٣ م في أسرة فقيرة معدمة ، وبعد موت والده هاجر الى أمريكا الشمالية مع أخيه الأكبر وأمه وأختيه ، وقد عانى كثيراً في حياته قبل أن يبتسم له الحظ ، ثم مات سنة ١٩٣١ م وهو في الثانية والأربعين من عمره .

• • •

ومن أشهر شعراء الرابطة القلمية في أمريكا الشمالية الشاعر العظيم ايليا

أبو ماضي ، شاعر الحياة والحب والخير ، وشاعر فلسفة الحياة ، في أسلوب شعري رقيق مؤثر أبلغ التأثير لما يتمتع به من عمق في التفكير وجمال في التعبير في آن واحد .

ولد ايليا أبو ماضي في «المحيدثة» بلبنان سنة ١٨٩٤ م ثم اضطرته ظروف الحياة الى الهجرة الى مصر بحثاً عن سبل أفضل للحياة في مجال التجارة البسيطة وبعد عشر سنوات في مصر عاد ليهاجر من جديد حيث رحل في سنة ١٩١٢م الى أمريكا الشمالية ، وهناك اتصل بعد سنوات بجبران خليل جبران في نيويورك واشترك معه ومع بقية رفاقه في تأسيس الرابطة القلمية .. وقد كان أبو ماضي أكثر انتاجاً من جبران في الشعر الذي بدأ في نظمه منذ سن مبكرة وهو بمصر التي أصدر فيها سنة ١٩١٠ م ديوانه الأول باسم « ديوان ايليا ضاهر أبو ماضي » ثم أعقبه بديوان « تذكر الماضي » في سنة ١٩١١ م ومعظم شعره الأول في القضايا الوطنية .. أما في المهجر فقد اكتملت شخصيته الشاعرية ، وأصدر دواوينه التي لا زالت محل عناية محبي الشعر ونقاده حتى يومنا هذا .. ومنها ديوان « الجداول » وقد صدر سنة ١٩٢٧ م ، وديوان « الخمائل » وقد صدر سنة ١٩٤٦ م ، وديوان « تبر وتراب » .. واشتغل في الصحافة وأصدر صحيفة خاصة به وهي « السمير » التي كانت أوسع الصحف العربية في المهجر انتشاراً بين العرب هناك .

وفي شعر أبي ماضي نجد الحب الكبير الذي يكنه الشاعر للطبيعة وجمالها ، ورغم ما يلاقيه الانسان من عذاب وآلام في كنف الحياة ، فانه لا داعي لشكواه منها ، لأن عناصر الخير والجمال تكفي لانتصار الانسان ، ومن أقواله المشهورة في هذا المجال قوله : « أنا بالحب قد وصلت الى نفسي وبالحب قد عرفت الله » .. ومن هذه الفلسفة يخاطب الشاعر ايليا أبو ماضي الانسان بشعره ويدعوه الى الانتصار على مشاكل الحياة بالحب والخير والجمال فيقول :

أيّهذا الشاكي وما بك داء   كيف تغدو اذا غدوت عليلا
هو عبء على الحياة ثقيل   من يظن الحياة عبئاً ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال   لا يرى في الوجود شيئاً جميلا
كن هزاراً في عشّه يتغنّى   لا غراباً في الليل يبكي الطلولا

• • •

أما في أميركا الجنوبية فقد أسس النازحون العرب اليها من هواة الأدب في سنة ١٩٢٣ م جمعية تجمعهم وتعبر عن اتجاهاتهم وأسموها « العصبة الأندلسية » .. ولعل السبب في تلك التسمية هو الجو الاسباني الذي يخيم على الحياة العامة في جنوب أميركا ، بالاضافة الى أن بعض مدنها تحمل أسماء المدن الاسلامية العربية في اسبانيا الأندلسية مثل « قرطبة » و« غرناطة ».وقد أثارذلك كوامن الذكرى في نفوس أولئك النازحين الذين راحوا يتطلعون الى احياء ذكرى الأدب العربي في الأندلس في عهود الحضارة العربية الزاهرة .

وكانت « العصبة الأندلسية » حين تأسيسها من الشعراء : ميشال معلوف ، وداود شكور ، ونظير زيتون ، ونصر سمعان ، وحسني غراب ، ويوسف غانم ، وحبيب مسعود ، واسكندر كرباج ، وأنطون سليم سعد ، وشكرالله الجر .. وأسس أعضاء هذه الجماعة الأدبية صحيفة ينشرون فيها أفكارهم وانتاجهم الأدبي أسموها « العصبة » وما أن تسامع أدباء العربية في أميركا الجنوبية بهذه « العصبة » حتى تسارعوا للانضمام اليها . فانضم اليها شفيق المعلوف ، ورشيد سليم الخوري الشهير بلقب « الشاعر القروي » ، وأخوه قيصر الخوري ، وتوفيق قربان ، ونعمة قازان ، والياس فرحات ، وعقل الجر ، ونجيب يعقوب ، وجورج انطون كفوري، وأنيس الرامي ، وجورج الخوري كرم ، وجبران سعادة ، وسلمى صائغ ، وفؤاد نمر .

وبعد سنوات من النجاح والعطاء الأدبي العظيم ، كان مصير « العصبة الأندلسية » كمصير أي شيء في هذه الحياة الدنيا .. يبدأ لينتهي .. وكما انفرطت « الرابطة القلمية » في أميركا الشمالية لموت أعضائها وتفرقهم ، انفرطت في أميركا الجنوبية العصبة الأندلسية لموت أعضائها وتفرقهم أيضاً .. وبنهاية سنة ١٩٤٧ م أصبحت تلك « العصبة الأندلسية » مجرد ذكرى لجمعية أدبية عربية في ديار الغربة .

ومن أشهر شعراء تلك « العصبة » الشاعر الملقب باسم « الشاعر القروي » وهو رشيد سليم الخوري الذي يعتبر من أكبر الدعاة الى الوحدة العربية والى نبذ الخلافات بين العرب ليتمكنوا من اعادة أمجادهم القديمة .

وللشاعر القروي سبعة دواوين شعرية .. كان فيها قوي الديباجة ، وطني الاتجاه عربي اللسان والقلب . وقد سخر منه حاسدوه فقالوا عن شعره أنه «قروي» فتحداهم ولقب نفسه بالقروي اعتزازاً منه بالقرية وأهلها وحياة القرية . وقد رد على نقاده الذين اتهموه بأن شعره يفتقر الى الرقة .. فبيّن أن شعره يتميز بالقوة .. في سبيل الوطنية .. فقال ·

زعم الأغرار أنّي شاعر ... ضيّق الآفاق محدود الحدود
وستبلى وطنياتي الّتي ... رفلت منها البوادي في برود
جعلوا الرّقة مقياساً وما ... أبعد الرقة عن تلك الكبود
أرأيتم شاعراً تطربه ... أنّة الثكلى على رطب وحيد

• • •

ومن أشهر شعراء « العصبة الأندلسية » في أميركا الجنوبية الشاعر اللبناني الأصل الياس فرحات ، الذي كان مثل الشاعر القروي يشتعل حماساً لعروبته.

وكان يقف بشعره في وجه النعرات الطائفية التي تدعو الى تمزيق وطنه الأصلي لبنان والى ابعاده عن العروبة . وقد دعاه هذا الى الاعتزاز بالأمجاد العربية ، بل وبالاسلام رغم أنه مسيحي .. وكان يعبر بايمان عن حبه للاسلام الذي سما بالعرب حضارياً وقال في ذلك شعراً كثيراً منه قوله :

بينما الكون ظلام دامس   فتحت في مكّة للنور كوّة
وطما الاسلام بحراً زاخراً   بأواذيّ المعالي والفتوة
ان في الاسلام للعرب على   ان في الاسلام للناس أخوّة
فادرس الاسلام يا جاهله   تلق بطش الله فيه وحنوّه

• • •

ثانياً : من النثر :

لقد تقدم النثر في العصر الحديث تقدماً عظيماً في شكله ومضمونه ، وفي أجناسه الأدبية .. وقد سبق الاشارة الى ذلك .

إلاّ أن التحرر من قيود الصنعة والبديع ، كالسجع ، والطباق .. مثلاً .. أتى تدريجياً .. فنحن نرى أعلام النثر في بداية العصر الحديث .. وأولهم الشيخ رفاعة الطهطاوي – الذي أوردنا نموذجاً من أسلوبه في النثر وهو يصف المسرح كما شاهده في باريس – وأحمد فارس الشدياق ، واليازجي ، والبستاني ، كل هؤلاء وان ظهرت ملامح التجديد في أسلوبهم النثري ، الاّ أن بعض قيود الماضي ، وفي مقدمتها السجع كانت لا تزال تشد أسلوبهم اليها.

ولعل أشهر المجددين الذين تخلصوا من تلك القيود الشيخ محمد عبده رحمه الله ، ثم مصطفى لطفي المنفلوطي الذي كان يعيد صياغة القصص المترجمة

من الفرنسية وغيرها في لغة عربية مشرقة الديباجة، سهلة العبارة. ومن أشهر كتبه التي تأثر بها الشبان من هواة الأدب من بعده : « النظرات » و« العبرات» و« مجدولين أو تحت ظلال الزيزفون » و« الفضيلة أو بول فرجيني» و« الشاعر أو سيرانو دي برجراك » .

وفي المهجر كان جبران خليل جبران أبـــرز أعلام النثر الفني في العصر الحديث. وهو زعيم التجديد بحق، ولأسلوبه في النثر جمال يرقى به الى درجة الشعر أحياناً .

ومن أجمل ما كتبه جبران خليل جبران والذي يمثل قمة الجمال في نثره كتاب « العواصف » الذي أصدره سنة ١٩٢٠ م ، وكان آخر كتاب ألفه في اللغة العربية . وكان قد كتبه تحت تأثير حوادث الحرب العالمية الأولى ، وما نجم عنها من مجاعة فتكت بلبنان وسكان لبنان .. فاهتز ضمير جبران الفنان الانسان لتلك الأحداث وكتب باكياً ، يقول :

« مات أهلي ، وأنا قيد الحياة أندبهم في وحدتي وانفرادي ..

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين ، مضطهداً بـــين قومي المضطهدين ، لكانت الأيام أخف وطأة على صدري ، والليالي أقل سواداً أمام عيني ..

ولكنني هنا .. وراء البحار السبعة ، أعيش في ظـــل الطمأنينة وخمول السلامة ..

أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ، ولا أستطيع أن أفتخر بشيء .. حتى ولا بدموعي ..

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويكفّ بحياتي يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقتضمني طعاماً ..

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويبعد بجسدي ظل الموت عن جسده .

لم يمت أهلي متمرّدين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين .. مات أهلي على الصليب ، وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب ، وعيونهم محدقة الى سواد الفضاء .

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم ..

ماتوا لأنهم لم يحبوا اعداءهم كالجبناء ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين » .

• • •

وأشهر أعلام النثر في المشرق العربي في العصر الحديث عملاق الأدب العربي المعاصر الاستاذ عباس محمود العقاد ، وعميد الأدب العربي المعاصر الدكتور طه حسين .. وكلاهما يمثل اتجاهاً ومدرسة .

فالعقاد من مدرسة الديوان ، التي اتجهت الى بعث التراث العربي واظهار كنوزه من جهة ، والى النهل من مدرسة الأدب الانجليزي من جهة أخرى .

أما طه حسين فهو فرنسي الثقافة عربي الاتجاه غار على أوضاع الثقافة العامة في المشرق في عصره فصرخ يطلب التجديد والاصلاح .

وغير العقاد وطه حسين كثيرون .. وكثيرون جداً .. في القصة .. والمقالة.. والخطابة .. وفنون القول في ميادين النثر .

ويتميز أسلوب العقاد بميله الى الموضوعية الجادة ، دون عناية خاصة بموسيقى العرض الفني .. بينما كان يحرص طه حسين على العرض الفني

الجميل .. ومن أجمل ما كتبه طه حسين رحمه الله كتاب «الأيام» الذي حكى فيه سيرته الذاتية ، وكتاب «الوعد الحق» الذي حكى فيه بعض روائع قصص الايمان العظيم عند صحابة الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم .. بالاضافة الى عشرات الكتب الأخرى .

ومن كتاب «الوعد الحق» نقتطف هذا الفصل الذي كتبه طه حسين رحمه الله في قصة ياسر وعمار وسمية ، وما تحمّلوه في سبيل ايمانهم بالله تعالى وبعثة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام .. كتب طه حسين يقول :

«ولم يكد يبلغ داره ويلج من بابها حتّى أنكر من الدار ومن أهلها كل شيء ، فقد رأى زوجه سمية فرحة مرحة ، قد أشرق وجهها على رغم ظلمته ، وابتسم ثغرها وهي تلقاه مبتهجة النفس منبسطة الأسارير . فلا يكاد يدنو منها حتّى تثب اليه وتتعلق به تلقي اليه في صوت مبتهج تشيع فيه الغبطة وتفيض منه البهجة . أبشر ياسر فقد جاءنا عمار بخير الدنيا والآخرة ! قال ياسر دهشاً : الآخرة ! ما الآخرة ؟ ماذا تقولين ؟ اني لأعيش عيشة منكرة منذ اليوم . تروعني أحلام الليل ، ولا أفهم ما يقال لي أثناء النهار . قال عمار : أبشر يا أبت ، فقد جئتك بخير الدنيا والآخرة . قال ياسر : أمفصح أنت عمّا تريد ؟ ألم احدّث أنك قد صبأت ! ويلك ! ماذا جنيت على أبويك ؟! قال عمار وهو يتضاحك رفقاً بأبيه : بل قل : ماذا جنيت لأبويك ! فقد جنيت لكما خير الدنيا والآخرة . لقد حدثك من حدثك بأني صبأت . فاني لم أصبؤ ، وانما أسلمت لله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، وأرسل الينا محمداً يهدينا سبلنا ويبصرنا بأمرنا ويخرجنا من الظلمات الى النور . ومن الجهالة والضلالة والغيّ الى الحكمة والهدى والرشد ، ويبشر من آمن واتقى بأن له رضا الله عنه ما عاش ، وبأن له رضا الله عنه ومثوبته له بعد أن يموت ، وينذر من كذّب وعصى بأن عليه لعنة الله حيّاً ، وبأن له نار جهنم يصلاها خالداً فيها بعد أن يموت .

وسمع الشيخ هذا كله مصغياً له ، وكأن كلمات ابنه كانت تنفذ الى قلبه دون أن تمر بأذنيه ، وقد جعل وجهه يشرق شيئاً فشيئاً حتى استحال كلـه نوراً ، وجعلت قوته تذهب عنه شيئاً فشيئاً حتى تهالك وكاد ينهار لولا أن أسرع اليه ابنه وامرأته فأسنداه وأجلساه وأقبلا عليه يرفقان به ويتلطفان له ، يمسح عمار رأسه وتمرّ سمية يدها على وجهه ، والشيخ واجم لا يتحرّك لسانه في فمه الا بهذه الكلمات : فهو ذاك اذن ! فهو ذاك اذن ! قال عمار في صوت حلو : ماذا تقول يا أبت ؟ قال ياسر وقد احتبست في حلقه عبرة لم يبن صوته منها الا بعد جهد ، وقد جعلت عيناه تسحّان على وجهه دموعاً غزاراً —، قال ياسر : هو ذاك اذن ! لقد أذكرتني يا بنيّ حديثاً كان بيني وبين أبي حذيفة حين ألمت بمكة ولم أكد أجاوز العشرين . أراد أن يحالفني عند آلهته فأبيت عليه . فلما سألني عن ذلك ذكرت له أني لو كنت متخذاً إلهاً لعبدت البحر الذي يخيفني ، أو الشمس التي تضيء لي . أو النجوم التي تهديني . ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ قلبي ولا يتحدث الى نفسي ولا يثير فيها رغباً ولا رهباً . فقد أنبأك محمد اذن بأن لهذه الآيات كلها خالقاً فطرها ودبر أمرها . هو ذاك اذن ! ثم أطرق الشيخ اطراقة طويلة ، ثم رفع رأسه والدموع تنهلّ من عينيه غزاراً وهو يقول : هو ذاك اذن ! ومن أجل هذا آثرت بعد الدار على قربها . واخترت أن أكون حليفاً لبني مخزوم على أن أكون عزيزاً في بني عبس . وتركت أخويَّ يعودان الى تهامة . وأقمت أنا في هذه البطحاء . ثم يتحول الى سمية فيمسح رأسها بيده وهو يقول : وكان حبّك هو الذي دعاني الى انتظار هذه الساعة . ثم يعود الى اطراقه . ثم يرفع رأسه . وقد كفت عيناه عن البكاء وجعلت قطرات من دمعه تتلألأ في لحيته ، وهو يقول لابنه عمار : متى تصحبنا الى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ قال عمار هلمّ الآن ان شئتما.

وأقبل المساء من ذلك اليوم واذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل في فتية من أحرار مخزوم ورقيقها ، فوضعوا عماراً وأبويه في الحديد . وأشعلوا في دار ياسر النار . يقول ياسر لسمية والقوم يعتلونهم الى حيث يحبسون : انظري سمية ، هذه أول النار التي عرضتها عليّ الأحلام . فيقول عمار : ومـــن ورائها جنة فيها نعيم ورضوان للذين صدّقوا محمداً واستجابوا لما دعاهم اليه»

• • •

الأدب العربي السعودي

تمهيد :

إنّ ما نعنيه بالأدب العربي السعودي هو الأدب الحديث والمعاصر الذي نشأ وترعرع في قلب جزيرة العرب في ظلال الحكم السعودي مباشرة ، أو في ظلال دعوة التوحيد والتجاوب معها ، تلك الدعوة التي رفع لواءها الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، رحمه الله ، الذي تعاون معه في نشرها وتصحيح أوضاع المسلمين على أساسها الامام محمد بن سعود ، رحمه الله ، الجدّ الأكبر للأسرة السعودية الحاكمة ، التي قام حكمها الاسلامي العربي العادل على القواعد الراسخة لتلك الدعوة الاسلامية الصحيحة .

أمّا بداية تأسيس هذا الحكم فقد كانت في القرن الثاني عشر الهجري ، على يدي الامام محمد بن سعود ، رحمه الله ، الذي تولّى حكم الدرعية سنة ١١٣٩ هجرية — ١٧٢٦ م .. وبعد تولّيه الحكم بتسعة عشر عاماً أتاه الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، الذي كان قد رفع لواء دعوة التوحيد ، وطالب بالعودة الى منابع الاسلام الصحيحة ، ونبذ الخرافات، والبدع ، فأحسن الامام محمد بن سعود استقبال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ونصره ، وأعانه ، وتعاهد معه على أن يتعاونا من أجل القضاء على الفتن والفساد والخرافات ، وعلى توضيح حقيقة التوحيد ، وتحكيم شريعة الله سبحانه ، فكان هذا هو الأساس الأول الذي انطلقت منه الدعوة ، والذي قامت عليه الدولة السعودية ، التي جاهد حكامها دائماً في سبيل اعلاء كلمة

الله وتوضيح حقيقة التوحيد الخالص ، حتى عادوا بالحكم والحياة كلها في جزيرة العرب الى المنابع الاسلامية الصافية ، فأشرقت أنوار الحق ساطعة من جديد في ربوع جزيرة العرب .

وكان تجاوب العلماء والأدباء وجمهرة المفكرين مع هذه الدعوة الكريمة تجاوباً دل على استعداد أبناء هذه الجزيرة لتقبل دعوة الخير وتطلعهم الى اقامة حكم الإسلام الصحيح في بلادهم .

وقد مرّ الحكم السعودي بمراحل وأدوار تاريخية مختلفة ، بين المدّ والجزر ، وكانت المؤامرات والدسائس في بعض الأحيان تضعضع أركان هذا الحكم ، الى أن جاء القرن الهجري الرابع عشر الحالي – الموافق للعشرين الميلادي ، حيث هب الملك الباني والمؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله ، يعيد تأسيس هذه الدولة ، ويشيّد بناءها ، فتوالت انتصاراته حتى تكللت في النهاية بأعظم نجاح سياسي عندما أسس أكبر دولة موحدة في جزيرة العرب ، هي دولة المملكة العربية السعودية ، التي تعاقب أبناؤه من بعده على بناء نهضتها وتنمية قدراتها في كل مجال من مجالات الحضارة والتمدن ، وكل ذلك بفضل الله وحسن توفيقه ، ونصره لمن ينصره .

أولاً : الإرهاصات الأولى :

أحدثت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، رحمه الله ، تلك الدعوة التي تنادي المسلمين وتطلب اليهم العودة الى منابع الاسلام وأصوله الصحيحة ، والتمسك بشريعة التوحيد ، والتي تبنّاها آل سعود – أحدثت تلك الدعوة تأثيرات واسعة وعميقة في الأدب والفكر في جزيرة العرب .

وتدل الآثار الأدبية في مناطق الجزيرة المختلفة منذ القرن الثالث عشر الهجري

التاسع عشر الميلادي على أن تأثير تلك الدعوة في الأدب والأدبـاء كان مبكراً جداً..حيث تجاوب الأدباء منذ بداية انطلاق الدعوة من نجد مع ما دعت اليه.

ومن أقدم أدباء هذه البلاد الذين تأثروا بالدعوة وانطبع انتاجهم الأدبي بطابعها شاعر عظيم من شعراء القرن الثالث عشر في منطقة الأحساء ، هـــو الشاعر :

الشيخ أحمد بن مشرّف :

واسمه بالكامل هو : أحمد بن علي بن حسين بن مشرّف ، الذي ولد – رحمه الله – بالأحساء في شرق جزيرة العرب ، ونشأ بها .

وفي شبابه سافر أحمد بن مشرّف الى نجد ، طلباً للعلـــم واستزادة منه ، فاتصل بعلماء الرياض ، وأخذ العلم عن كبار أئمة نجد ، فتفقّه في الدين، وعلومه حتّى أصبح عالماً فقيهاً من علماء هذه البلاد في تلك الحقبة من التاريخ. ثم عاد رحمه الله – الى مسقط رأسه في الاحساء حيث وافته المنية هناك سنة ١٢٨٥ هـ .

عاش أحمد بن مشرّف رحمه الله في ظل الدولة السعودية الثانية في عهد الامام فيصل بن تركي – رحمه الله – في القرن الثالث الهجري .. واتصل الشاعر بالامام فيصل بن تركي وكان من مؤيديه لتمسكه بأهداب الدين ودفاعه عن الدعوة .

ومن شعر الشيخ أحمد بن مشرّف الذي امتدح فيه الامام فيصل بن تركي باعتباره حارس الدين والمدافع عن دعوة التوحيد .. قوله :

إذا أنت أزمعت المسير لتنجدا فلا تعد قصراً في الرياض مشيّدا
بناه امام المسلمين ولم يـــزل يؤسس ما يبنى على الدّين والهدى
ترى حوله الأضياف تلتمس القرى وقوماً يريدون المكارم والندى

فيرجع كل نائلاً ما يرومه ... من العدل والإحسان والفضل والجدا
كريم يرى للمعتفين إذا أتوا ... ومن يطلب المعروف: حقاً مؤكدا
تعوّد بسط الكفّ طبعاً وانّما ... لكل امرىء من دهره ما تعوّدا
يعيش اليتامى والضّعاف بنيله ... ويروي حدود المرهفات من العدا
وهل يدرك العلياء الاّ مهذّب ... أضاف الى الإحسان سيفاً مجردا؟

وللشيخ أحمد بن مشرّف شعر كثير تصدى فيه للدفاع عن دعوة التوحيد الخالص والرد على أعدائها من أصحاب الفرق .. من ذلك مثلاً ما قاله في الرد على « المعطلة والجهمية » :

نفيتم صفات الله فالله أكمل ... وسبحانه عمّا يقول المعطّـــل
زعمتم بأن الله ليس بمستـــو ... على عرشه والاستوا ليس يجهل
فقد جاء فيالأخبار في غير موضع ... بلفظ « استوى » لا غير يا متأوّل

والأهمّ من هذا كله ، من الناحية الفنية ، الشعر القصصي الذي أجاد في نظمه ابن مشرف ، مما يدل على أنه رائده في الأدب العربي الحديث قبل أحمد شوقي — رحمه الله — الذي لم يولد الا بعد وفاة ابن مشرف بعام كامل تقريباً فقد توفي ابن مشرّف سنة ١٢٨٥ هـ بينما ولد شوقي سنة ١٢٨٦ هـ .

ومن ذلك الشعر القصصي الذي أجاد في نظمه .. قصة صاغها شعراً ، ورمز فيها الى بعض حقائق الحياة على لسان الحيوان ... اذ تصور أن سرباً من الطيور أبصر حبّاً منثوراً ، — وكان جائعاً — فأراد أكله ، فقام منهم ناصح ليحجزهم عن هذا الحبّ الذي لم ينثر في الفلاة الاّ لأمر هام ، وقال لهم : ان مكابدتكم الجرع حتّى تتبينوا الأمر خير من المخاطرة ، لكن الطيور لم تصغ لنصحه ، وسارعت لا لتقاط الحب فلفتها الشّباك فندمت وعادت الى ذلك الناصح .

تضرع اليه ليفكر في تخليصها ، فأمدّها برأيه الصائب ، وهو أن تنهض مرة واحدة فتقتلع الشبكة وتطير بها ، ففعلت ، فأبصرها الصياد – وقد ارتفعت بها – فأخذ يعدو لاهثاً وراءها حتّى اختفت ، ثم قادها ذلك الناصح الى واد ، وأمرها أن تنزل به ، ثم نادى صديقه الفأر ، فقرض الحبال فتمزقت الشبكة وخلصت الطيور من ذلك الأسر ، وأقامت في ضيافة الفأر ثلاثة أيام .. وهذه القصة شعراً .. هي :

فأبصروا على الثرى ... حبّاً منقى نثرا
فأحمدوا الصباحا ... واستيقنوا النجاحا
فأسرعوا اليه ... وأقبلوا عليه
حتّى إذا ما اصطفوا ... حذاءه أسفّوا
فصاح منهم حازم ... لنصحهم ملازم
مهلاً فكم من عجلة ... أدنت لحيّ أجله
تمهّلوا لا تقعوا ... وأنصتوا لي واسمعوا
آليتكم بالرّبّ ... ما نثر هذا الحب
في هذه الفلاة ... الاّ لخطب عاتي
انّي أرى حبالاً ... قد ضمّنت وبالا
وهذه الشّباك ... في ضمنها هلاك
فكابدوا المجاعة ... وانتظروني ساعة
حتّى أرى وأختبر ... والفوز حظ المصطبر
فأعرضوا عن قوله ... واستضحكوا من حوله
قالوا وقد خط القدر ... للسمع منه والبصر
ليس على الحق مرى ... حبّ معدّ للقرا

ألقى على التراب للأجر والثواب
ما فيه من محذور لجائع مضرور
أغدو على الغذاء فالجوع شر داء
فسقطوا جميعاً للقطه سريعا
فوقعوا في الشبكة وأيقنوا بالهلكة

• • •

أما في الحجاز فقد قام منذ عهد مبكر أيضاً عدد من الشعراء الفحول ينادون بالعودة الى الاسلام ، صافياً كما كان ، بعيداً عن الشوائب والبدع ، والإلتزام به شريعة ونظام حياة . ومن أشهر أولئك شاعر المدينة المنورة الشهير :

الشيخ ابراهيم الأسكوبي :

الذي كان من أكثر شعراء عصره شجاعة عندما وقف يوجه النصيحة والعتاب الى حكام الدولة العثمانية ويطالبهم بالعودة الى الاسلام وتحكيمه في كل شيء لتعود للمسلمين عزتهم التي أرادها الله سبحانه وتعالى لهم . ومن ذلك الشعر قوله :

يا آل عثمان فالمغرور من غرّا بأهل أوربة ، أو عهدهم طرّا
أتأمنون لموتورين ديدنهم أن لا يروا منكم فوق الثرى حرّا
لا تحسبوا أنهم ناسون ما فعلت أسلافهم بهمو .. في سالف مرّا
أيقظتموهم بضرب الهام فانتبهوا من نومهم .. ورقدتم أنتم الدهرا
هل من خبير بداء في قلوبكموا أعمى البصيرة حتى أغلق الفكرا
عقائد فسدت فيكم فأفسدت الملك العظيم وأفشت فيكم الذعرا

ظننتموا أن دين الله أخركم عنهم..وهم حمدوا كفراً به المسرى
لا تظلموا رحمة للعالمين أتت هدت الى حكم عظمى جرت نهرا
فلو عملتم بها .. ما فاتكم أحد سبقاً .. ولا أحد يوماً لكم أزرى
تذكروا.. كم خطيئات لكم سلفت بها تأخرتموا عنهم.. أبت حصرا
تالله، تالله.. ان لم تسمعوا الذكرى مالوا عليكم، فلم يبقوا لكم ذكرا
نعـم الشفاء بقرآن الإلــه اذا قبلتموه ، والاّ فاسكنوا القبرا
ان تنصروا الله ينصركم فكم فئة قليلــة غلبت أضعافهــا كثرا

• • •

وقد ولد الشيخ ابراهيم الأسكوبي – رحمه الله – سنة ١٢٦٩ هـ في المدينة المنوّرة وتوفي بها سنة ١٣٣٢ هـ ، أي أنه عاش في نهاية القرن الثالث عشر، الهجري ومطلع القرن الرابع عشر الهجري .

والأسكوبي نشأ وترعرع في المدينة وتلقى العلم على علمائها الأفاضل في حلقات الدرس بالمسجد النبوي الشريف ، وكانت له رحلات علمية وعلاجية قريبة وبعيدة تعرّف أثناءها على مستحدثات العصر ووصفها .. كما فعل في وصف القطار في « مزدوجة » طويلة .

وبتأمل هذين النموذجين .. في شخص ابن مشرّف والأسكوبي .. وبدراسة نتاجهما الشعري ، نستطيع أن نؤكد أن هذه البلاد لم تكن متخلفة عن غيرها من بلاد العرب في الشعر والأدب ، حتى في أحلك العصور ، عندما اختفت المدارس ودور العلم وظلت المساجد وحدها تحمل مشاعل النور والهداية في هذه البلاد .

ففي شعر ابن مشرّف .. مثلاً .. من الناحية الفنية أساليب عصرية جديدة ، متمثلة في الشعر القصصي والرمز على ألسنة الحيوان ، الذي كان المسلمون أسبق من غيرهم اليه منذ عهد ابن المقفع في مطلع العصر العباسي . وأسلوب

ابن مشرف بعيد عن المحسنات ، ولا يقل في قوته عن شعر البارودي . وموضوعاته حية ، حتّى شعره الديني الذي يحمل مسحة تعليمية يحمل الحيوية بتمثيله للتيارات الفكرية المتصارعة في عصره .

وكذلك هي الحال في شعر الأسكوبي الذي يعتبر من الناحية الموضوعية، الفكرية شجاعة نادرة المثال في عصره في مواجهة حكام الدولة العثمانية بالحقائق ومطالبتهم بالعودة الى تعاليم الاسلام ، وهو في ذلك معتدل في شجاعته لأنه يدعو الى الاصلاح في محافظة على وحدة الدولة الاسلامية الكبرى دون تطرّف أو تعصب .

أما من الناحية الفنية فان شعر الاسكوبي شعر قوي لا يقل هو الآخر عن شعر البارودي أو غيره من فحول شعراء بداية العصر الحديث في البلاد العربيـــة الأخرى ، وهو شعر بعيد عن الركاكة وزخرف القول وقيود البديع . مع معالجة لقضايا العصر في موضوعية ، وبثقافة واسعة ، مما يدل على سعة أفق مفكري هذه البلاد وشعرائها منذ القدم ، وحتّى في أحلك عصور التاريخ وأكثرها ضنكاً وشدة .

ولا يعني اكتفاؤنا بذكر هذين الشاعرين من الأحساء والمدينة المنوّرة أن الشعر والأدب كان منحصراً فيهما في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر الهجريين ، بل أن هنالك نماذج ممتازة أخرى كثيرة ، ولكـــن المجال مجال دراسة عامة وهذا يدعو الى الايجاز والاكتفاء ببعض النماذج كمثال فقط ، للاستشهاد .

• • •

ثانياً : الأدب في المملكة العربية السعودية :

توالت في مطلع هذا القرن الهجري الرابع عشر انتصارات الملك الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، الذي استطاع رحمه الله أن يؤسس ، بما يشبه المعجزة ، دولة عظيمة كبرى في قلب جزيرة العرب ، ضمت أمجاد الاسلام ، وصانت قبلة المسلمين وكل مقدساتهم . فاستبشر جميع العرب، والمسلمون ، وسكان هذه البلاد ، ومفكروها وأدباؤها بصفة خاصة ، خيراً بقيام هذه الدولة الكبرى . خصوصاً وأنهم لمسوا اهتمام مؤسس هذه المملكة– رحمه الله – بنشر العلم بـين جميع أبناء هذه البلاد ، وتيسير سبل الحياة وتوسيع نطاقها وآفاقها لأهل هذه البلاد .

فانتفض الأدباء ، والشباب منهم بصفة خاصة ، وراحوا يزاولون نشاطاً أدبياً غير عادي . وكانوا يعبرون في كل ما يصدر عنهم من أدب – شعراً ونثراً – عن طموحهم وما تصبو اليه نفوسهم من مجد ورفعة لبلادهم في كل مجال من مجالات الحياة والثقافة الواسعة بصفة عامة ، وفي مجال الأدب بصفة خاصة .

ولعل أشهر ما تميز به الانتاج الأدبي في بداية قيام المملكة العربية السعودية ، انه كان انتاجاً جماعياً مشتركاً ، اذ كان الأدباء يشتركون في مجموعات أو جماعات في اصدار الكتب التي يعبرون فيها عن أفكارهم ويعرضون فيهـا مواهبهم ، ومن أمثلة ذلك . كتاب « المعرض » الذي أصدره الشيخ محمد سرور الصبّان ، رحمه الله ، حاملاً آراء مجموعة مختارة من أدباء الحجاز في اللغة العربية وأدبها . وكتاب « أدباء الحجاز » الذي صدر باشراف الشيخ محمد سرور الصبّان أيضاً في الأربعينات من هذا القرن الهجري حاملاً نماذج من نتاج أدباء الحجاز في تلك الفترة . ثم كتاب « وحي الصحراء » الذي صـدر باشراف الاستاذين عبد الله عمر بلخير ومحمد سعيد عبد المقصود ، – رحمه

الله – وضم نماذج من الانتـــاج الأدبي ، الشعري والنثري لأشهر الأدباء في الحجاز في سنة ١٣٥٥ هـ مع تراجم لهم ، مصدرة بصور معظمهم ثم صدر كتاب آخر في السنة ذاتها ١٣٥٥ هـ يحمل نماذج لأدباء أصغر سناً وهو كتاب « نفثات من أقلام الشباب الحجازي » وقد جمع مواد ذلك الكتاب كل من هاشم يوسف الزواوي ، وعلي حسن فدعق ، وعبد السلام طاهر الساسي .

ولو أردنا أن ندرس هذه الظاهرة المتمثلة في اصدار كتب جماعية مشتركة لوجدنا – كما نعتقد – أن السبب في ذلك يرجع الى تخوف أولئك الأدباء من الظهور فرادى ظناً منهم أن مستواهم أقل من مستوى غيرهم من معاصريهم . وهو لا شك ظن له ما يبرره ، رغم أن ذلك النتاج المطبوع يؤكد وجود عناصر قوية كان بامكانها الوقوف موقف الند مع غيرها من الأدباء العرب المعاصرين وهذا يؤكده شجاعة بعض أولئك الأدباء في طبع نتاجهم مستقلاً .. ومـــن أمثلة أولئك : الأستاذ محمد حسن عواد ، الذي يعتبر أول من انفرد بتأليف كتاب واصداره بمفرده في الأدب العربي السعودي ، وكتابه ذلك هو « خواطر مصرّحة » الذي حمل خطرات نفس شابة طموحة الى أقصى درجات الطموح ، متحمسة أشد ما يكون التحمس للأخذ بأسباب التجديد لتطوير الحياة في كل مجالاتها ، والأدب واحد منها بطبيعة الحال ، ويصف العواد كتابه هذا وما حمله من خطرات وخواطر ، فيقول وهو يقدم له انه : « عبارة عن قطعة مجسمة من بشريتي وشخصيتي خلقتها نفسي من انفعالها بالحياة الانسانية التي عبرت عنها صورها المشهورة والمحجبة .. انفعال بلورة الفكر والعاطفة والارادة والخلق وسائر أشعة النفس » . وقد أصدر العواد كتابه الأول ذلك في طبعته الأولى في « جزءين منفصلين في تاريخ كتابتهما ونشرهما وفي بعض ملامح اسلوبهما ولكنهما متصلان في الأسلوب العام ، وفي وحدة المرمى ».. ويضيف العواد الى ذلك في مقدمة كتابه هذا أنه كتب « الجزء الأول منه في ثنايا أيام ١٣٤٤ هـ ، الموافقة لسنة ١٩٢٦ م ونشر في أوائل ١٣٤٥ هـ » وكان

وقتذاك يستقبل السنة العشرين من سني حياته . ويصف العوّاد حالته النفسية التي كتب فيها خواطره تلك فيقول : « كان أسلوبي فيه أسلوب المتعلم الثائر على منهج تعليمه عندما يدرك بعقله الباطن وبفطرته أن هذا المنهج وما يواكبه من مناهج أخرى ، انما هي محاولات يصحبها الفشل في بعث « الانسان » النائم في طبيعة الطفل » .. ومن الأمور التي رفضها العواد وشرح أسباب رفضه لها في كتابه هذا ، ولها صلة بالأدب العربي ، موضوع البلاغة العربية التي هاجم وهو يتحدث عنها أساليب تدريسها في المدارس بطريقة تذكر بموقف الدكتور طه حسين المشابه من تدريس الأدب العربي والبلاغة في مصر ، ولا شك أن العواد في سنه تلك كان متأثراً بأدباء العرب في البلدان المجاورة . وكان تأثره أكثر بأدباء العربية في المهاجر الامريكية وفي مقدمتهم « جبران خليل جبران » الذي نلمس روح أسلوبه في كتابات العواد المبكرة في « خواطر مصرّحة » . وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى وأصداء واسعة بعد نشره ، لأنه كان بحق بمثابة هزّة عنيفة لأصحاب العقول المفكرة أيقظتهم على حقائق كان لا بد من دراستها وتحسين أوضاعها .

والأستاذ محمد حسن عواد شاعر فحل مجيد ، وان كان أول كتاب ألفه ونشره في النثر ، لأن طموحه غلبه كما يبدو ، أو غلب روح الفنان فيه ، اذ رأى أن الخطوة الأولى يجب أن تكون توضيح الرؤية وتمهيد الطريق . وللعواد مؤلفات كثيرة ، وكتابات في الصحف من أهمها المعارك الفكرية التي خاضها مع زملائه من أدباء الرعيل الأول ، أمثال الأستاذ عبد القدوس الأنصاري الذي كان أول من كتب القصة في الأدب العربي السعودي المعاصر . وقبل أن نتحدث عن الأنصاري لا بد أن نتعرف على ملامح العواد في شعره ، فهو بطموحه الذي بدأ به حياته الأدبية يعتبر أكبر داعية الى التجديد في الأدب في هذه البلاد بدون تحفظ ، وهو صلب في المواقف التي يدعو اليها ويؤمن بها ، مثل قضية « الشعر الحر » الذي يؤيده رغم رفض غالبية شعراء طبقته له.

والعواد متأثر بالمذهب الانساني في الأدب ، ويمازج في شعره كثيراً بين الواقعية والرومانسية ، ومن أمثلة ذلك قصيدته المنشورة في كتابه « رؤى أبولون » بعنوان « ذكرى أوفى أعقاب الهوى » .. والتي قال وهو يتحدث عنها وعن مزاوجته بين الخيال الفني والواقع الحقيقي فيها : « وقد يتلاعب الشاعر الابتداعي الحديث بأمر هذه الشيطنة فيداعبها مداعبة فنية ساخرة .. كأن يجعل منها موضوعاً قصصياً ، أو يجسم الخيال والباعث ويعطيها صورة روح أو صورة طيف ، وعلى هذا الأساس نظمت قصيدتي ، « ذكرى أوفى أعقاب الهوى » . وقد نظم العواد هذه القصيدة في مقاطع قال فيها :

يا صفى الأمس يا باعث أطيافك في جنح الليالي
زمراً تحشدها الذكرى بأحلامي ، فما تترك بالي
واصلتني في صباحي ومسائي ، نعماً أحيت خيالي
كلما مثّلها الحبّ المولّي همست ، سكرى قبالي:
أنا من تعرف ـ صدقاً ووفاء ـ في الهدى أو في الضلال

• • •

ويتحدث العواد في قصيدته هذه — التي تعبر بصدق عن خطه الفني وفلسفته في الشعر — عن مسؤولية الشاعر في الحياة فيقول :

أيها الشعر ! كما تبعث في الليل شعوراً ، وخيالا
ولحوناً ، ورؤى ، يبصرها الشاعر طيفاً ، أو جمالا
أنت في الصبح شعاع يكسب الفكر نشاطاً وجلالا
أنت مفتاح الى العالم ، يعطي النفس بالنور اتصالا
كذب الزاعم أن الشعر أقوال .. يحاول المحالا

هكذا قلت .. وقد غادرني الطّيف ، ووافى الواقع
فاذا الواقع ، في فلسفة الشعر عصى ، طائـع
واذا الشعر حياة ثرة ، يرتـــع فيها الراتـــع
ان يغم في ظلمات العيش للعالم هــم قابـع
لا ينر للعيش الاّ شاعر حيّ ، وشعر ساطع

• • •

ومن أوائل من تشجعوا ونشروا انتاجهم الأدبي مستقلاً الأستاذ عبد القدوس الأنصاري الذي يعتبر أول من ألف رواية في الأدب العربي السعودي الحديث اذ أصدر في سنة ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م رواية طويلة بعنوان « التوأمان» طبعت في مطبعة الترقي بدمشق وتعتبر من جنس «الرواية التعليمية الاصلاحية».. وأراد الأنصاري فيها أن يثبت « أضرار المعاهد الأجنبية المؤسسة في الشرق على مستقبل الشرق نفسه ، وذلك لما تلقنه لناشئته من تعاليم التغرب والتذبذب المشين » كما ذكر في مقدمته لتلك الرواية .. ورواية « التوأمان » وان كانت أولى الروايات التي يكتبها أدباء هذه البلاد وينشرونها الاّ أنها لم تكن مــن الناحية الفنية مكتملة البناء ، كما يعترف مؤلفها نفسه بذلك في مقدمتها اذ يقول عنها أنها « وان تكن غير مسبوكة تماماً على أصول الفن الروائي العصري فقد يجد القارىء فيها صورة صحيحة عن أضرار المعاهد الأجنبية » ، وأعقــب الأنصاري رواية «التوأمان» بقصة نشرها في صحيفة «صوت الحجاز » بعنوان «مرهم التناسي» . وقد تصدى الأستاذ محمد حسن عواد للاستاذ عبد القدوس الأنصاري،وهاجمه هجوماً عنيفاً في محاولاته القصصية تلك، ونشر هجومه في جريدة « صوت الحجاز » ، ثم أعاد نشره في كتاب « تأملات في الأدب والحياة » . ولكنه اعترف للأنصاري بفضله في مجال الدراسات والتحقيق .

والحق أن الأستاذ الأنصاري يعتبر أحد أهم أقطاب ثلاثة من أدباء هذه البلاد في مجال البحث والتحقيق وهم :

١ ـ الأستاذ عبد القدوس الأنصاري

٢ ـ الأستاذ حمد الجاسر .

٣ ـ الأستاذ احمد عبد الغفور عطار .

والأستاذ الأنصاري هو صاحب أول مجلة أدبية جادة تصدر في هذه البلاد في عهدها الحديث وهي مجلة « المنهل » التي أصدرها في المدينة المنورة ، ثم أنتقل بها إلى مكة المكرمة .. ثم إلى جدة..ولا زال يواصل اصدارها منذ نحو نصف قرن خدمة للأدب والعلم . والأنصاري أديب وعالم متعدد الجوانب ، فهو ناثر وشاعر . وله ديوان مطبوع ، الا أن الجانب الذي تفوق فيه هو جانب البحث والتحقيق ، وله فيه مؤلفات كثيرة .

ومن شعر الأستاذ عبد القدوس الأنصاري قصيدة نشرها في كتاب « وحي الصحراء » بعنوان « اغفاءة الشاعر وانتباهته » .. فيها محاولة تجديد من الناحية الفنية ، وذلك بعدم الالتزام بقافية واحدة للقصيدة كلها ، وقسمها الى ثنائيات ، اذ جعل كل وحدة منها في بيتين تختلف قافية الأول منهما عن الآخر .. وتظل قافية البيت الثاني واحدة حتى آخر القصيدة .

وفي هذه القصيدة يتحدث الشاعر عن قضية الخيال و « الرومانسية » وعزلة الشاعر .. وعن واجباته كانسان مفكر في الاسهام بما لديه من فكر في بناء نهضة أمته .. ويخلص الى تقرير حقيقة يراها .. وهي أن عزلة الشاعر عن مجتمعه تعتبر « ذنباً » أو « هفوة » لا يلبث الشاعر أن يصحو ليتوب عنها .

ومن تلك القصيدة نختار هذه الأبيات :

إغفاءة الشاعر وانتباهته

في واحـــة تعبق روضاتها   وتبعث الغبطـــة ربواتهـــا
خميلة دانـــت زميلاتهـــا   لحسنهـــا المنمنـم المستفيض

• • •

تعابث النسمـــات أشجارها   ليستثير الشدو أطيارهـــا
وتفتح الأكمــــام أزهارها   لتلهم الشاعر وحـــي القريض

• • •

آوى اليهـــا شاعر ملهـــم   سامي الخيـــال بالأسى مفعم
لمـــا رأى أمتـــه تحجـــم   عـــن المعالي وتسوم النقيض

• • •

وبينمـــا الشاعر في وحدته   يجلـــو جمال الكـــون في جنته
تطربـــه ألحــــان قيثارتـــه   في ذلك الروض الأغنّ الأريض

• • •

اذا بصــــوت مفعم بالأنين   منبعث من عمق قلب حزين
فالتفت الشاعر كـــي يستبين   فهالـــه الشعب يكـــاد يفيض

• • •

فاستيقظ الشاعر من غفوته واعتزم التوبة من هفوته
وأزمع التكفير عن جفوته وعاد يدعو قومه للنهوض

* * *

وصادفت دعوته أذناً صاغية تواّقة للهنا
آلمها سقوطها في العنا وراعها أن الجناح مهيض

* * *

وأول من أصدر منفرداً ديوان شعر مطبوع مستقل في الأدب العربي السعودي المعاصر هو الأستاذ أحمد بن عبد الغفور عطار الذي أصدر سنة ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م ديوان « الهوى والشباب » وطبعه في مطبعة الرسالة بمصر، وكتب مقدمته بعد دراسة جميع قصائده ومقطوعاته الدكتور طه حسين رحمه الله الذي أشاد بشاعرية العطار وما كانت تبشر به من مستقبل في دنيا الشعر، فقال طه حسين وهو يقدم لهذا الديوان، موجهاً كلامه للأستاذ العطار : « فرغت لديوانك ساعة من نهار ، فلك الشكر على هذه المتعة الخالصة الممتازة، فقد وجدت في شعرك من رصانة اللفظ ، وعمق المعنى ، وعذوبة الموسيقى، وحسن الانسجام ، وحرارة العاطفة ، وصدق الشعور ، ما أذكرني عهوداً لم أنسها ولن أنساها ، بل لم أفارقها لأنها قوام الحياة الأدبية لكل أديب عربي، وهي عهود الشعر الحجازي حين كان غض الشباب خصباً من جميع نواحيه . وإني لسعيد حين أرى في ديوانك بشائر صادقة لنهضة شعرية رائعة في الحجاز » .

الا أن العطار لم يحقق ذلك الأمل في الشعر حيث توقف عن نظمه متجهاً الى الدراسات المتعمقة والبحوث الجادة .

ومن الظواهر التي تستحق الملاحظة أن الشاعر العوّاد كان أول من ألّف في النثر كتاباً مستقلاً في الأدب العربي السعودي الحديث ، والعطار الناثر كان أول من أصدر ديوان شعر كامل من الأدباء السعوديين ، والأنصاري البحاثة كان أول من ألف رواية في الأدب العربي السعودي . ثم اتجه كل منهم بعد ذلك وجهة أخرى .

والعطار في شعره كما وصفه طه حسين كان متمكناً من ناحيتي أسلوب الأداء الفني ، والبناء الموضوعي . ونجد فيه تأثيرات كثيرة من القدامى والمحدثين والمعاصرين . فهو يشبه المتنبي في روح الإباء والاستعلاء والطموح الذي لا حدود له حين يقول عن « المثل الأعلى » :

أرى المثل الأعلى جميلاً محببا ... الى النفس أما كان فكرة شاعر
فلو كان ميسوراً وفي الوسع نيله ... لملّ وأمسى في عداد الصغائر
فما عشقنا إيّاه الا لأنه ... منيع ، وفي الممنوع قيد الخواطر
ومن دأبنا حب المنيع ، وكرهنا ... لما كان ميسوراً لادراك قادر

وفي حديث العطار عن الحمّى التي أصابته يوماً يقول :

وما تبقى بجسمي غير أعظمه ... تكسّى بجلد، وهذا الروح في صفد
شتّى سهام توالى فيّ صاردها ... غضبان، لا ينثني عن جسم مضطهد

وهذا يذكرنا بما قاله المتنبي في حمّى اصابته وهو بمصر.. ومنه قوله :

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

وفي شعر العطار ملامح من شعراء عرب معاصرين ، وعلى سبيل المثال فان قصيدته الطويلة التي أسماها « ميلاد شاعر » تذكرنا بقصيدة تحمل هذا العنوان نفسه للشاعر علي محمود طه .. والقصيدتان مطولتان وتسيران في اتجاه واحد مما يؤكد تأثر العطار بعلي محمود طه .. فالعطار يقول :

في دجى الليل سرى لحن جديد   من أقاصي الشرق نحو المغرب
فإذا الدنيا غناء ونشيد   وضياء شق ستر الغيهب

• • •

سأل الناس ، وفي التسآل حيرة   أي شيء جدّ في الكون القديم
أترى الجنة أضحت قيد شعرة   ففشا النور على هذا الأديم

• • •

ومن قبله صور الشاعر علي محمود طه « ميلاد شاعر » تصويراً مشابهاً فقال :

هبط الأرض كالشعاع السّني   بعصا ساحر وقلب نبي
لمحة من أشعة الروح حلت   في تجاليد هيكل بشري

• • •

والحق أن شعر الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار شعر قوي ، يفوق شعر من تأثر بهم في بعض الأحيان مثل شعره في « ميلاد شاعر » ، ولكنه – للأسف – توقف عن نظمه متجهاً الى التأليف الجاد حيث أصدر عشرات الكتب في اللغة والأدب وتحقيق كتب التراث ، كما ترجم لشاعر الهند طاغور ، فالعطار عالم جليل وأديب من طراز فريد في الأدب العربي السعودي المعاصر .

ومن الأدباء الذين نظموا الشعر في مطلع حياتهم الأدبية ثم تركوه الى مجالات أخرى ، في مقدمتها البحث والتحقيق والتأليف الجاد ، الأستاذ حمد الجاسر ، الذي اشترك مع شباب آخرين في سنة ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٧ م في نشر نتاجه في كتاب « نفثات من أقلام الشباب الحجازي » وقد كان من بين النتاج الأدبي الذي نشر للجاسر شعر فيه ما يؤكد قدرته على النظم لولا توقفه عنه فيما بعد .. ومن شعر حمد الجاسر المنشور في ذلك الكتاب قوله :

عاش الشباب الذي للمجد قد طلبا واستشعر الحزم حتى يدرك الأربا
به الحياة لشعب طالما وهنت منه العزيمة والسلوى وما نكبا

وأصبح الأستاذ حمد الجاسر بتحقيقاته وبحوثه الجادة أحد أعلام جزيرة العرب في البحث والتأليف ، وهو عضو في المجمع اللغوي بالقاهرة ، وفي مجمع دمشق العلمي ، وله مجلة جادة يخصصها للبحوث والدراسات المتصلة بجزيرة العرب وهي مجلة « العرب » . والجاسر هو أول من أصدر صحيفة في نجد اذ أصدر جريدة « اليمامة » في الرياض في عهد الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله .

ومن الأدباء الذين بدأوا حياتهم الأدبية بنظم الشعر وتفوقوا فيه أيضاً محمد سعيد العامودي ، الذي ترك نظم الشعر فيما بعد متفرغاً للبحث والتحقيق . والعامودي هو أحد الذين أسهموا بنشر نتاجهم في كتاب « وحي الصحراء » الذي صدر سنة ١٣٥٥ هـ حاملاً مجموعة كبيرة من انتاج الأدباء الذين كانوا شباباً في تلك الفترة مع تراجم لهم . ومن شعره المنشور ضمن منشورات ذلك الكتاب قصيدة بعنوان « الزمن والانسان » وذكر وهو يقدم لها أنها فازت في مسابقة أجرتها مجلة «الهلال» المصرية (عدد مايو) سنة ١٩٣٣م مما يؤكد أصالة العامودي ومقدرته كشاعر رغم توقفه عن نظم الشعر بعد ذلك .. وهو يقول في تلك القصيدة التي تصور تطور الانسان في الحياة وتدرجه فيها :

أنا بالأمس حينما كنت طفلا ليس دأبي غير البكاء والسهاد
كان هذا الزمان ينسل في بطء أمامي ، ويختفي باتئاد

إلى أن يقول :

انّما فهمنا الحياة (كمال) عيبه أن داءه النقصان

وللأستاذ محمد سعيد العامودي دور كبير في الصحافة الجادة في المملكة العربية السعودية فهو قد ترأس مجلة « الحج » فترة طويلة من الزمن ، ثم انتقل من رئاسة تحرير « الحج » الى رئاسة تحرير « مجلة رابطة العالم الاسلامي » بمكة المكرمة . وهو كاتب يتمتع بثقافة واسعة وفكر متعمق وأسلوب واضح ، وله محاولات قصصية ناجحة نشرها في مطلع حياته الأدبية في مجلة « المنهل ».

أما أشهر شعراء هذه البلاد فهو الشيخ أحمد بن ابراهيم الغزاوي ، الذي اشتهر بأنه شاعر المناسبات الهامة ، وشاعر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، رحمه الله ، وشعره قوي يذكر بشعر فحول الشعراء في العصر العباسي مثل البحتري .. كما يذكر بشعر القدامى خصوصاً في مفرداته التي تتسم بالغرابة والفخامة في كثير من الأحيان ، ومن شعره الذي قاله في التعبير عن فرحة أهل هذه البلاد بتوحيدها على يدي الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله قوله بين يدي جلالته حين جاء الى الرياض مع وفد من أهل الحجاز للبيعة :

قدمنا فأمضينا الى متطوّل مطالعه نور وأعماله رشد
أتيناك من ضب الحجاز ببيعة توطّد فيها الأمر فاستحكم العهد
تكاد اذا ما استنطقت عن سطورها تجاوب بالاخلاص لو أمكن الردّ
وقد حملتنا أمّة في ربوعه أمانتها الكبرى وفي طيّها حشد

والغزاوي الشاعر العظيم ، ناثر متمكن من أسلوبه أيضاً وقد عمل في الصحافة ، وهو ينشر دراسات لغوية وتاريخية يربط فيها بين الماضي والحاضر ويجعل لها عنواناً ثابتاً هو « شذرات الذهب » وقد نشر هذه « الشذرات » في جريدة « البلاد السعودية » ثم أصبح ينشرها بعد ذلك في مجلة المنهل .

وسبق الغزاوي في الاتصال بمؤسس هذه المملكة وبانيها الملك عبد العزيز رحمه الله شاعر فحل آخر من نجد هو الشيخ محمد بن عبد الله بن عثيمين ، الذي جمع شعره الأستاذ سعد بن عبد العزيز رويشد وشرحه ورتبه ، وطبع هذا الديوان على نفقة الشيخ عبد الله السليمان رحمه الله . وأول اتصال للشاعر الشيخ محمد بن عبد الله بن عثيمين بالامام الملك عبد العزيز رحمه الله كان سنة ١٣٣١ هـ حين دخل الملك عبد العزيز منتصراً الى الاحساء والقطيف في شهر جمادي الأولى من تلك السنة . حيث استبشر الشاعر بذلك خيراً فنظم قصيدة طويلة مدح فيها الملك عبد العزيز ، وقال فيها :

العزّ والمجد في الهنديّة القضب لا في الرسائل والتنميق للخطب
تقضي المواضي فيمضي حكمها أمما ان خالج الشك رأي الحاذق الأرب

ويقصد الشاعر « بالهندية » السيوف الهندية . وهو يبدو في قصيدته هذه شديد التأثر،الى درجة التقليد ، بالشاعر العباسي أبي تمام الذي قال في مدح المعتصم يوم فتح « عمورية » :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

والسبب في ذلك يرجع الى نوع الثقافة التي تثقف بها ابن عثيمين ، وهي الثقافة المستمدة من كتب التراث العربي الاسلامي القديم . لقد جمع ابن عثيمين كذلك بين أسلوب الشعر الجاهلي وروح الاسلام اذ كان من أشد الناس ايماناً بعقيدة التوحيد الخالص ، وكان ينظم شعره على منوال الأقدمين في معاني

جديدة ، ويكثر الغريب في شعره مع الجزالة والفخامة . وهو متمكن من الشعر في صوره القديمة . ومن شعره ذلك قوله يصف ناقته على طريقة طرفة ابن العبد الجاهلي تقريباً ، اذ يقول ابن عثيمين رحمه الله :

وموّارة الضبعين ، محكمة القرا أمون السّرى عبر الهجير ذمول
بعيدة ما بين التّرائب جسرة تلاحظ ظل السوط أين يميل
جشمت عليها الهول أمّا نهارها فوخـــذ وأمّا ليلها فذميـــل

والذي يقصده بالضبعين هنا العضدين ، والقرا ظهر الناقة و « محكمة القرا » أي متينة الظهر صلبة . أمون أي مأمونة وثيقة والذميل هو السير الهادىء . والتّرائب جمع تريبة ، وهي عظام الصدر أي أنها عريضة الصدر ، وهـــي حساسة تسير بمجرد رؤية السوط وقبل أن يلحقها ضربه . وجشمت أي تكلفت مثل تجشمت .. والوخذ هو السير السريع الحثيث ، أما الذميل فهـــو السير الهادىء .

ان ابن عثيمين وهو يمدح ناقته في هذه الأبيات يذكرنا فوراً بما فعله طرفة ابن العبد في العصر الجاهلي وهو يمدح ناقته أيضاً . فكلمات ابن عثيمين كلمات غريبة عن عصرنا الحديث لا بد من الرجوع الى القاموس لمعرفة بعضها ، وهذا نتيجة لما تزود به ابن عثيمين رحمه الله من ثقافة ، ناهيك عن عدم اتصالـــه بوسائل العصر الحديث خصوصاً في شبابه .

وفي جنوب المملكة كان الشيخ علي السنوسي في عهد عبد العزيز رحمه الله من الشعراء الذين ناصروه بشعرهم ومدحوه فيه . والشيخ علي السنوسي شاعر يسير في ركاب الأقدمين في طريقة نظمه الشعر ومعالجة الموضوعات المختلفة فيه ، على عكس ابنه الأستاذ محمد بن علي السنوسي الذي يتميز بالرقة في شعره ومحاولته التجديد في المعاني دونما خروج على نظام الشعر كما عرفه العرب في

العصور السابقة . ومن أجمل ما قاله الشاعر السنوسي الابن (الاستاذ محمد بن علي السنوسي) في مدح الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ، قوله :

يا سيد الصحراء جلّلها الحيا ... وسقى مرابعها السحاب الغيدق
خليت من الأنهار .. الا أنها ... ذهباً تفيض .. وعسجداً تتدفق
غبرت بها الأيام .. لم يكشف لها ... بسرّ ولم يفتح عليها مغلــق
وتكبّرت الاّ عليك ، لأنها ... وجدتك تعطي باليدين وتغدق

وكما أسلفنا ، فان محمد بن عــلي السنوسي يختلف عن والده الشيخ علي السنوسي في الشعر .. واذا أردنا أن نعقد مقارنة بين الاثنين الأب وابنه فانه يجمل بنا أن نجعلها في موضوع واحد ، وهو الموضوع الذي أوردنا فيه أبيات الشاعر محمد بن علي السنوسي في مدح الملك عبد العزيز رحمه الله .. حيث كانت تلك الأبيات تتميز بالرقة والدقة معاً في مزاوجة بين الأسلوب الجميل الحالم والقواعد التقليدية المتوارثة في الشعر ، مع الاشارة الى مستحدثات العصر وتسخيرها لخدمة الموضوع ، مثل اكتشاف البترول وتسخيره لتطوير الحياة في بلاد العرب التي وحدها الملك الباني عبد العزيز ، كل ذلك في أسلوب مقنع يقبله العقل والمنطق .. أمــا والده الشيخ علي السنوسي رحمه الله فانه يبالغ بأسلوب لا يرضى عنه الممدوح ، وتغلب عليه النزعة التعليمية على طريقة نظم المتون فهو يقول مثلاً :

عبد العزيز أدام الله دولتــه ... في المشرقين الى أن تنقضي الدّهر
ولم يدع من خصال المجد منقبة ... لناشيء من بني الأيام تعتبر
وأخمل الذكر من كل الملوك فما ... يحلو الحديث بهم يوماً وان ذكروا
ومفــرد بالمعالي جاء منحصراً ... في نعته المبتدأ المرفوع والخبر
وجازم الفعل والماضي بظاهره ... ومن سواه ضمير جاء يستتر

والحذف والنقص من صرف البناء اذا ما جاء فهو على شانيه ينحصر

...

وقد جاء هذا الشعر للشيخ علي السنوسي في ديوان « شعراء الجنوب » ، وهو شعر تبدو عليه الصنعة والتكلف من أول بيت فيه حيث جعل نهايته كلمة « الدّهر » وهي جمع دهر اضطرته القافية وضرورات الشعر الى تحويلها الى « دهر » بدلا من « دهور » وهي كلمة ثقيلة على السمع وغيرمألوفة أساساً، كذلك الاطلاق والتعميم بطريقة لا يرضى عنها الممدوح لأنه جعله فرداً صمداً لا يشاركه سواه في « خصال المجد » وكان الأجدى أن يفند خصائصه كما فعل ابنه في حديثه عـــن قدرة الملك عبد العزيز رحمه الله عـــلى توحيد الجزيرة واستخراج كنوزها وتسخيرها لتطوير الحياة فيها ، كذلك فان الصنعة والتكلف يظهران من خلال اقحام المصطلحات النحوية مثل « المفرد » « النعت » وأن « المبتدأ المرفوع والخبر » « انحصرا » في « نعته » وكذلك « جازم الفعل » وبقية المصطلحات النحوية الأخرى التي تذكر بالشعر التعليمي في نظم المتون على طريقة الأقدمين ، مع عدم ظهور العاطفة بحرارتها الصادقة. ولكن هذا لا يعني أبداً أن شعر الشيخ علي السنوسي كله من هذا النوع ، بل له رحمه الله شعر جيد ، ولكنه مثال سقناه على بعض الأساليب الجامدة في الشعر .

والشعر في أدب هذه البلاد هو أهم ما يشتغل به أدباؤه ، ويبدو أنه بسبب عنصر الوراثة ، حيث أن هذه البلاد كانت الموطن الأول للشعر العربي منذ أقدم العصور . وقد صدرت كتب كثيرة تحمل نماذج شعرية لمجموعات من الشعراء ، من أقدمها كتاب « الشعراء الثلاثة » الذي ضم نماذج لأشهر شعراء الحجاز في مطلع هذا العصر وهم : محمد حسن عواد ، وحمزة شحاتة ، وأحمد قنديل . وقد جمع هذا الشعر وأصدره الأستاذ عبد السلام طاهـــر الساسي سنة ١٣٦٨ هـ ، ثم أعقبه في سنة ١٣٧٠ هـ بكتاب « شعراء الحجاز في

العصر الحديث » الذي ضم انتاج سبعة وعشرين شاعراً جعل في مقدمتهم الشيخ محمد سرور الصبان ، ومن مشاهير أولئك الشعراء : أحمد بن ابراهيم الغزاوي ، ومحمد حسن فقي ، ومحمد حسن عواد ، وحمزه شحاته ، وحسين عرب ، وطاهر زمخشري وحسين سرحان ، ومحمد عمر عرب وغيرهم . وكل من هؤلاء ظاهرة عظيمة تستحق الوقوف عندها من أكثر من زاوية .

فالأستاذ محمد حسن فقي شاعر كثير الانتاج وشعره يتميز بالعمق الموضوعي ، والمسحة الفلسفية وازدراء مظاهر الحياة البراقة مما يدل على سمو نفس الشاعر . وللأستاذ محمد حسن فقي ديوان شعر مستقل بعنوان « رجل وقدر » وهو يملأ صفحات الصحف بشعره القوي الرصين ، وأكثر ما اشتهر به شعر الرباعيات . ومن شعره الاسلامي ، ما جاء في قصيدة ضمها ديوانه ، وتحدث فيها عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومواقفه العظيمة وما أحدثته بعثته من أثر بعيد في التاريخ الانساني ، وهي بعنوان « من وحي النبوة » وقال فيها :

يا من أتيت من السّماء بملة ... تهدي العقول بمنطق خلاّب
ملأت بقاع الأرض حكمة سرمد ... وسلام آباد وخلــد شباب
هرم الزمان وما تزال فتيّــة ... معصومة من نكسة ومعاب
الدين والدنيا رفيقا منهــج ... في شرعها .. للسوق والمحراب
الخير غايتهـــا بكل وسيلة ... والحق مطلبها .. بكل خطاب
يقف المليك وان تطاول ملكه ... برحابها .. في موقف الحطاب
ما كان أسعدنا بدينك مفضياً ... بحياتنا .. لمرابع الاخصاب
لو لم نحد عنه لكان لمجدنا ... ما كان منه بسالف الأحقاب

• • •

أما حمزه شحاته فهو حديث أدباء هذه البلاد على الدوام لأنه رحمه الله كان شاعراً قوياً مجيداً ، وكان خطيباً مفوهاً ، عميق الفكرة ، بعيد النظر.. يميل الى الرمز في بعض شعره ليعبر عن بعد نظره وأفكاره التي يرمز اليها، بطريقة فلسفية ولكنها تفيض رقة وشاعرية . ورغم ما كتب ونشر عن حمزه شحاته فان حقيقة هذا الفنان الأديب لا زالت في حاجة الى مزيد من البحث والدراسة والأضواء العلمية . وقد جمع بعض شعر الأستاذ حمزه شحاته في ديوان مستقل صدر سنة ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م بعنوان « شجون لا تنتهي » عن دار الشعب بالقاهرة ، وقد كتب مقدمة تلك المجموعة الشعرية الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي وقال فيها عن حمزه شحاته أنه : « ... شاعر عبقري ضخم الشاعرية ... » .

ومن شعر شحاته الذي استشهد به محمد عبد المنعم خفاجي للتدليل على عبقرية شحاته أبيات تفيض رقة مع عمق فكري .. قال فيها :

أخبر سبيليك التي تتجنب	وأدنى حبيبك الذي لا تقرب
فيا ليت لي منك التجنب والفلا	وراءهما ودّ الفؤاد المغيب
فرب ابتسام دونه وغرة الحشا	وأعراضه فيها الحنان المحجب
وقيت الأسى لو انصف الحب بيننا	لما بت أرضى في هواك وتغضب

***

أما طاهر زمخشري فهو شاعر غنائي مرهف الحس ، يذوب رقة وعذوبة، حتى عندما يعبر عن الأسى الذي يعتصره ، والألم الذي يعذبه .. وهو شاعر غزير الانتاج له دواوين كثيرة ، وشعره من عيون الشعر العربي المعاصر ، استطاع أن يتخطى حدود بلاده ويحقق شهرة واسعة في كل مكان لم يستطع غيره أن يوصل اسمه اليه . وطاهر زمخشري شخصية اجتماعية محبوبة ،

اشتهر بلقب « بابا طاهر » لأنه كان يقدم برنامج « الأطفال » في الاذاعة العربية السعودية في بداية تأسيسها ، ويدين له كثير من شباب هذه البلاد من وزراء ووكلاء ووزارات وأساتذة وغيرهم، يدينون بالفضل للأستاذ طاهر زمخشري لأنه وجههم التوجيه الأدبي المناسب في مقتبل حياتهم . ويشهد كثير من النقاد العرب بجودة شعر الأستاذ طاهر زمخشري ورقته وعذوبته ، وهو يحمل الفكر العميق في أسلوب حالم وعرض فني بالغ الجمال . وله شعر وطني كثير ، بل انه أصدر ديواناً مستقلاً كان موضوعه قضية فلسطين وجهاد أبنائها في سبيل تحريرها ، وأسماه « من الخيام » .

وتقوم فلسفة الزمخشري التي يمكن استخلاصها من شعره ، على أنه لا سبيل للفنان في هذه الحياة الا أن ينتصر على أحزانها وآلامها ومآسيها ، وأن يستشعر السعادة رغم ما يصدر عنه من تعبير تلقائي عن المآسي تبوح به نفس الفنان بصدقه وحسه المرهف ، وقد لخص الزمخشري ذلك في كثير من مقطوعاته الرائعة ، ولعل أكثرها تعبيراً عن فلسفة الاستعلاء على الأسى والألم والانتصار على العذاب باستشعار السعادة رغم التعبير التلقائي يصدر عن النفس المعذبة الصافية .. قوله وهو يفتتح ديوان « ألحان مغترب » الذي أصدره سنة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣ م عن دار الأندلس في بيروت :

فؤادي لم يعد الا بقايا ... من الآهات في صدري تنوح
ويخفق كلما هتفت شجون ... ويصدح كلما انتفضت جروح
ويذرع مسهداً سود الليالي ... وفي آماد غربته يسوح
وحسبي أنني أحيا سعيداً ... وأنفاسي بما أطوي تبوح

انها كبرياء الفنان الأصيل على كل ما يتعرض له في الحياة العادية من عذاب

بصرعه بسعادته التي يستشعرها رغم ما تبوح به نفسه من التعبير عن تاريخ الألم .

• • •

ومن الشعراء الممتازين الذين حققوا شهرة واسعة أيضاً الأستاذ حسن عبد الله القرشي ، وهو مثل الزمخشري كثير الانتاج ، وله دواوين مطبوعة كثيرة حققت رواجاً داخل البلاد وخارجها .. وشعره فيه عمق وتجربة وفيه رموز تكاد تنطق بما لا يعرفه الشعراء العاديون ، والقرشي شاعر متعدد الجوانب ، مارس كتابة الشعر المسرحي ويتميز بالأسلوب الرقيق الحالم والأداء الفني الخفيف مع عمق الفكرة ، ومن أجمل شعره الذي يعبر فيه عن اعتزازه بوطنه وعروبته ما جاء في قصيدة بعنوان « وحدة نحن .. » قال أنها نظمت تخليداً، لذكرى لقاء مع الأشقاء في الخليج العربي وضمها ديوانه الذي أسماه « عندما تحترق القناديل » .. وقال فيها :

يلتقي الأكرمون دوماً لتحيا مثل النبل شامخات العماد
منبع المجد دافق في ثرانا ماله في نميره من نفاد
كيف ننسى ارث المروءات يهدي للحمى من وفاضه خير زاد ؟
وحدة نحن في التحام وداد شعلة نحن في نفير جهاد

• • •

ومن شعراء الحجاز المعاصرين الشاعر الفنان والاذاعي الناجح الأستاذ مطلق مخلد الذيابي .

• • •

ومن الكتب التي صدرت حاملة مجموعة من المختارات الشعرية مع تراجم لأصحابها كتاب «شعراء نجد المعاصرون» الذي أصدره الأستاذ عبد الله بن ادريس سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م والذي ضمن نماذج مختارة لثلاثة وعشرين شاعراً من شعراء نجد المعاصرين مع تراجم لهم ، مع دراسة حول الشعر ، واتجاهاته الحديثة استهل بها الأستاذ عبد الله بن ادريس هذا الكتاب . ومن أشهر الشعراء الذين حمل هذا الكتاب نماذج من شعرهم : الأمير عبد الله الفيصل آل سعود ، الشاعر الذي لا يوجد مثقف عربي لا يعرف اسمه ولم يسمع بشعره . وهو صاحب ديوان مطبوع ذائع الصيت أسماه «وحي الحرمان» وتحسباً لما قد يواجه القارىء من استغراب للحرمان الذي يصف به أمير في منزلة الأمير عبد الله الفيصل نفسه فقد شرح الأمير عبد الله في مقدمة ديوانه ذلك فلسفة الحرمان كما يراها ، ومنها اضطرار أبيه جلالة الملك فيصل ابن عبد العزيز تغمده الله بواسع رحمته ، الى الانصراف الى معاونة والده العظيم الملك عبد العزيز في تأسيس هذه الدولة ، مما حرم الأمير عبد الله من كل ما تمتع به غيره من الأطفال العاديين في كنف آبائهم .

والأمير عبد الله شاعر مبدع مرهف الحس يفيض شعره بفيض الوجدان الصادق . وهو شاعر غنائي يشدو بشعره أشهر المنشدين المعاصرين ، وفي شعر الأمير عبد الله عمق فكرة وبعد نظر . ومن شعره الذي يعبر فيه عن فلسفة الحرمان الذي عانى منه .. قوله تحت عنوان : «أمل المحروم» :

يا صغير السنّ يا مرهفه   شوق من جافيته أتلفه
ان تكن تقوى على طول النوى   فهو في بعدك ما أضعفه
أو تكن لا تعرف الوجد الذي   لم يبنه آن أن تعرفه
فلقد أدنيته من حتفه   وسوى وصلك لن يسعفه

• • •

٥

ومن مشاهير الشعراء الذين ضم نتاجهم الشعري كتاب «شعراء نجد المعاصرون» خالد الفرج ، ومحمد بن عبد الله بن عثيمين ، وناصر أبو أحيمد ومحمد الفهد العيسي ، ومحمد السليمان الشبل ، ومحمد العامر الرميح ، وسعد البواردي ، وحمد الحجي .. وغيرهم .

•••

خاتمـــة

إن من يمعن في تاريخ الأدب المعاصر في هذه البلاد يلاحظ كيف استطاع أدباء هذه البلاد أن يتزودوا بالعلم والمعرفة في وقت كان الوصول فيه الى ذلك صعباً جداً وشبه مستحيل ، ثم جاء العهـــد السعودي فنشر العلم وأقام صروحه في كل مكان ، فقامت المدارس التي مهدت لظهور الجامعات التي تقف اليوم شامخة في كل مكان من أرجاء هذه البلاد الواسعة ، تنشر العلم الصحيح وتتيح الفرص أمام البـــاحثين الجادين للوصول الى أرقى المستويات العلمية .

وانتشرت الصحافة التي بدأت بصحيفة رسمية واحدة هي جريدة « أم القرى » الأسبوعية التي تعاقب على رئاسة تحريرها عدد من كبار الأدباء كان أولهم الشيخ يوسف ياسين رحمه الله ، وكان منهم الشيخ الطيب الساسي رحمه الله ، وقد كانت « أم القرى » مرآة للأدباء تعكس ما تجيش به نفوسهم ، ثم ظهرت بعدها صحيفة شعبية أهلية هي « صوت الحجاز » التي أصدرها بمكة المكرمة قبل الحرب العالمية الثانية الشيخ محمد صالح نصيف ، رحمه الله ، ثم انتقلت ملكيتها بعد ذلك الى « الشركة العربية للطبع والنشر » التي أسسها الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله . وتوقفت « صوت الحجاز » أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم عادت الى الصدور بعد الحرب باسم جديد هو « البلاد السعودية »

كما صدرت في المدينة المنورة جريدة نشطة أخرى هي جريدة « المدينـــة المنورة » وقد أسهمت هاتان الصحيفتان اسهاماً فعالاً في تحريك الأدب في هذه البلاد ، حيث تنافس الكتاب والنقاد والشعراء على صفحات هاتـــين

الجريدتين وتمرّسا في الكتابة حتى أصبح منهم أساتذة أعلام كبار أمثال الأستاذ عبد الوهاب آشي والأستاذ عبد العزيز الرفاعي والأستاذ محمد علي مغربي من «صوت الحجاز» بمكة والأستاذ علي حافظ والأستاذ عثمان حافظ والأستاذ محمد حسين زيدان والأستاذ الشاعر الفحل ضياء الدين رجب ، رحمه الله ، من جريدة «المدينة المنورة» بالمدينة .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، وفي مطلع العقد السابع من القرن الهجري الرابع عشر الحالي صدرت صحف أخرى في مدن كثيرة من المملكة كما تأسست اذاعة المملكة العربية السعودية التي كان يديرها في بداية تأسيسها أديب.. شاعر فنان هو الأستاذ إبراهيم أمين فودة الرئيس الحالي لنادي مكة الثقافي.. وأسهمت كلها في تحريك الأدب والأدباء اسهاماً فعالاً كانت له أحسن الآثار .

ولكن هنالك بعض الأجناس الأدبية التي لم تحظ بالاهتمام الكافي من أدباء هذه البلاد ، ولعل في مقدمتها الجنس القصصي بجميع فروعه : الرواية ، والقصة ، والمسرحية . فبالرغم من أن عدد الذين مارسوا الكتابة في هذه الأجناس الأدبية قليل ، فان تجاربهم في ميادينها لا تكاد تتكرر أيضاً ، كما سجل ذلك الدكتور منصور ابراهيم الحازمي في بحثه الذي قدمه الى المؤتمر الأول للأدباء السعوديين عن : «الرواية في الأدب السعودي الحديث» .. ومن أهم الملاحظات التي سجلها الحازمي في بحثه ذلك المنشور في الجزء الثاني من مجلدات بحوث ذلك المؤتمر .. قوله :

«وهناك ظاهرة أخرى مرتبطة بمسألة الكم أو الاحصاء .. وتتمثل هذه الظاهرة في اقتصار كتابنا على تجربة واحدة أو تجربتين ، فللأنصاري واحدة ، ولمحمد علي مغربي واحدة ، ولأحمد السباعي واحدة ولمحمد زارع عقيل واحدة ، ولمحمد عبد الله مليباري واحدة ، ولحامد دمنهوري اثنتان ، ولابراهيم الناصر اثنتان وهكذا تتساقط التجارب الواحدة تلو الأخرى دون أن تتيح

للتطور أو النضج أن يأخذ مجراه من خلال التكرار أو تعميق التجربة » ... وكان الدكتور الحازمي قد لاحظ قبل ذلك الفجوات الزمنية الكبيرة التي تفصل بين كل تجربة روائية وأخرى .

أما « المقال » فقد كان أبرز الأجناس الأدبية التي مارسها الكتّاب السعوديون بنجاح ، ويصعب حصر المجيدين في هذا المجال ، اذ تزخر الصحف اليومية والأسبوعية بالكتابات الناجحة في هذا المجال يومياً .

أما النقد فلم يمارس بصورة علمية صحيحة الا من قبل بعض الأشخاص المعدودين مثل الأستاذ محمد عبد الله مليباري ، والأستاذ عبد العزيز الربيع والأستاذ عبد الفتاح أبو مدين . وليس ما تزخر به الصحف من مساجلات نقدية مما يعد من النقد الأدبي الصحيح فيما عدا القليل جداً .

وهنالك التأليف العلمي في مجالات متخصصة مثل كتابة التاريخ وأشهر أعلام هذا الجنس الأدبي الأستاذ أحمد السباعي صاحب كتاب « تاريخ مكة» والأستاذ أمين مدني من المدينة المنورة والأستاذ حمد الجاسر وغير هؤلاء . وهنالك كثير من الشبان الذين يمارسون الكتابة في الوقت الحاضر بحماس، وسوف تكون لهم بلا شك شهرة واسعة ان شاء الله ان هم مزجوا بين الموهبة الصحيحة والعلم النافع ، كما كان يفعل أسلافنا العظام .

والحمد لله الكريم على فضله وحسن توفيقه .

دكتور / عمر الطيب الساسي

جدة

في الرابع من شعبان سنة ١٣٩٨ هجرية

التاسع من يوليو ١٩٧٨ ميلادية

أهم المراجع

ا – في الدراسات العامة :

الكتاب	المؤلف
١ – الأدب وفنونه	عز الدين اسماعيل
٢ – الأسس الجمالية في النقد العربي	عز الدين اسماعيل
٣ – فصول في الأدب والنقد	طه حسين
٤ – من حديث الشعر والنثر	طه حسين
٥ – من تاريخ الأدب العربي (ط. بيروت)	طه حسين
٦ – دفاع عن الأدب	جورج ديهاميل (ترجمة محمد مندور) .
٧ – في الأدب والنقد	محمد مندور
٨ – تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيات
٩ – المختارات السائرة	أنيس المقدسي
١٠ – أصول النقد الأدبي	أحمد الشايب

المؤلف	الكتاب
عبد الحميد يونس	١١ ــ الأسس الفنية للنقد الأدبي
أحمد أحمد بدوي	١٢ ــ أسس النقد الأدبي عند العرب
أسل كومبي (ترجمة محمد عوض محمد) .	١٣ ــ قواعد النقد الأدبي
أحمد أمين	١٤ ــ النقد الأدبي
سيد قطب	١٥ ــ النقد الأدبي ، أصوله ومذاهبه
ترجمة احسان عباس ، وعبد الرحمن بدوي .	١٦ ــ كتاب الشعر (أرسطوطاليس)
احسان عباس	١٧ ــ فن الشعر
محمد غنيمي هلال	١٨ ــ الأدب المقارن
محمد عبد الرحمن مرحبا	١٩ ــ الموجز في تاريخ العلوم عند العرب
عمر الدقّاق	٢٠ ــ مصادر التراث العربي
أبو هلال العسكري	٢١ ــ كتاب الصناعتين
ابن عبد ربه	٢٢ ــ العقد الفريد
أبو الفرج الأصفهاني	٢٣ ــ الأغاني
ابن قتيبة	٢٤ ــ عيون الأخبار
الجاحظ	٢٥ ــ البيان والتبيين
الجاحظ	٢٦ ــ الحيوان
المبرد	٢٧ ــ الكامل
أبو علي القالي	٢٨ ــ الأمالي

الكتاب	المؤلف
٢٩ — زهر الآداب	الحصري
٣٠ — نهاية الأرب في فنون الأدب	النويري
٣١ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .	المقري
٣٢ — قلائد العقيان	الفتح بن خاقان
٣٣ — طبقات الشعراء	ابن سلام
٣٤ — طبقات الشعراء	ابن المعتز
٣٥ — معجم الشعراء	المرزباني
٣٦ — الشعر والشعراء	ابن قتيبة
٣٧ — معجم الأدباء	ياقوت الحموي
٣٨ — الذخيرة	ابن بسام
٣٩ — المؤتلف والمختلف	الآمدي
٤٠ — يتيمة الدهر	الثعالبي
٤١ — الفهرست	ابن النديم
٤٢ — تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
٤٣ — جذوة المقتبس	الحميدي
٤٤ — وفيات الأعيان	ابن خلكان
٤٥ — كشف الظنون	حاج خليفة
٤٦ — الأعلام	خيرالدين الزركلي
٤٧ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي	شوقي ضيف

الكتاب	المؤلف
٤٨ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي	شوقي ضيف
٤٩ ـ خزانة الأدب	الحموي
٥٠ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء	ابن الأنباري

ب ـ الأدب العربي في العصر الجاهلي :

١ ـ القصائد السبع الطوال	شرح الزوزني تحقيق عمر ابو النصر (ط . بيروت)
٢ ـ شرح المعلقات العشر	محمد أمين الشنقيطي
٣ ـ دواوين الشعراء الجاهليين	
٤ ـ تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي	السباعي بيّومي
٥ ـ تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي	شوقي ضيف
٦ ـ القيان والغناء في العصر الجاهلي	ناصر الدين الأسد
٧ ـ مصادر الشعر الجاهلي	ناصر الدين الأسد
٨ ـ الشعر الجاهلي	طه حسين
٩ ـ في الأدب الجاهلي	طه حسين
١٠ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام	جواد علي
١١ ـ شرح المعلقات العشر	التبريزي

ج – الأدب العربي في عهد النبوة وصدر الاسلام :

	الكتاب	المؤلف
١ –	القرآن الكريم	
٢ –	الحديث النبوي الشريف وكتب السيرة المطهرة	
٣ –	أدب الحديث النبوي	بكري شيخ أمين
٤ –	قبسات من الرسول	محمد قطب
٥ –	دراسة أدبية لنصوص من القرآن	محمد المبارك
٦ –	تاريخ الطبري	
٧ –	فتوح البلدان	البلاذري
٨ –	فجر الاسلام	أحمد أمين
٩ –	الاعلام في صدر الاسلام	عبد اللطيف حمزة
١٠ –	منهج الفن الاسلامي	محمد قطب
١١ –	ديوان حسان بن ثابت	

د – الأدب العربي في العصر الأموي :

١ –	تاريخ الأدب العربي (العصر الاسلامي)	شوقي ضيف
٢ –	المجتمعات الاسلامية في القرن الأول	شكري فيصل

	الكتاب	المؤلف
٣ –	دواوين الشعراء في العصر الأموي	
٤ –	الهجاء والهجاّؤون في صدر الاسلام	محمد محمد حسين
٥ –	شعراء البصرة في العصر الأموي	عون الشريف قاسم
٦ –	مروج الذهب	المسعودي
٧ –	تاريخ النقائض في الشعر العربي	أحمد الشايب
٨ –	أدب السياسة في العصر الأموي	أحمد محمد الحوفي
٩ –	ضحى الإسلام	أحمد أمين
١٠ –	شعر الخوارج	احسان عباس
١١ –	أدب الخوارج	سهير القلماوي

هـ – الأدب العربي في العصر العباسي :

	الكتاب	المؤلف
١ –	تاريخ الأدب العربي «ج ٣ العصر العباسي الأول» وج ٤ العصر العباسي الثاني » ،	شوقي ضيف
٢ –	معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول .	محمد نبيه حجاب
٣ –	أمراء الشعر في العصر العباسي	أنيس المقدسي
٤ –	الآداب السلطانية	الفخري
٥ –	بغداد في عهد الخلافة العباسية .	جي لسترانج (ترجمة يوسف فرنسيس) .

الكتاب	المؤلف
٦ — بغداد مدينة السلام	طه الراوي
٧ — الوزراء والكتاب	الجهشياري
٨ — دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء .	محمد رسول الكركوكلي
٩ — الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء .	المرزباني
١٠ — الاسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي
١١ — كتاب الورقة	ابن الجراح (تحقيق عبد الوهاب عزام ، وعبد الستار فرّاج) .
١٢ — طبقات النحويين واللغويين	الزبيدي
١٣ — المزهر	السيوطي
١٤ — جمهرة رسائل العرب	أحمد زكي صفوت
١٥ — ابن الرومي ، حياته من شعره	عباس محمود العقاد
١٦ — أخبار أبي تمام	الصولي (نشر خليل عساكر ورفاقه) .
١٧ — أمراء البيان	محمد كرد علي
١٨ — تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي .	حسن ابراهيم حسن
١٩ — النظم الاسلامية	حسن ابراهيم حسن

الكتاب	المؤلف
٢٠ ـ أبو بكر الصولي، العالم، الأديب، النديم .	أحمد جمال العمري
٢١ ـ كنوز الأجداد	محمد كرد علي
٢٢ ـ دواوين شعراء العصر العباسي	

و ـ الأدب العربي في الأندلس :

١ ـ دولة الاسلام في الأندلس	محمد عبد الله عنان
٢ ـ الاسلام في اسبانيا	لطفي عبد البديع
٣ ـ المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.	تحقيق شوقي ضيف
٤ ـ في الأدب الأندلسي	جودة الركابي
٥ ـ المقتبس في أخبار بلد الأندلس	ابن حيّان القرطبي (تحقيق عبد الرحمن الحجي) .
٦ ـ الشعر الأندلسي	غارسيا غوس (ترجمة حسين مؤنس)
٧ ـ نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي	كامل كيلاني
٨ ـ حضارة العرب في الأندلس	عبد الرحمن البرقوقي
٩ ـ المعتمد بن عباد	نديم مرعشلي
١٠ ـ الموشحات الأندلسية	فؤاد رجائي
١١ ـ ابن زيدون	نديم مرعشلي
١٢ ـ المعتمد بن عباد	عبد الوهاب عزام

ز – الأدب العربي في فترة ما بعد العصر العباسي :

الكتاب	المؤلف
١ – في أدب مصر الفاطمية	محمد كامل حسين
٢ – إمتاع الأسماع	المقريزي
٣ – الآداب السلطانية	
٤ – الفخري في الآداب السلطانية	ابن طباطبا بن الطقطقي
٥ – النجوم الزاهرة	ابن تغري بردي
٦ – عجائب الآثار في التراجم والأخبار	عبد الرحمن الجبرتي
٧ – دواوين شعراء تلك الفترة	
٨ – مؤلفات علماء وكتّاب تلك الفترة	

ح – الأدب العربي الحديث :

١ – في الأدب العربي الحديث	عمر الدسوقي
٢ – أعلام الجيل الأول من شعراء العربية في القرن العشرين	أنيس المقدسي
٣ – أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية .	جورج صيدح
٤ – الياس فرحات، حياته وشعره	سمير بدوان قطامي

	الكتاب	المؤلف
٥ —	أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر	أحمد تيمور
٦ —	تخليص الابريز في تلخيص باريز	رفاعة الطهطاوي
٧ —	تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر .	لويس شيخو
٨ —	كتاب الديوان	عباس محمود العقاد
٩ —	جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث .	عبد العزيز الدسوقي
١٠ —	المسرحية في شعر شوقي	محمود شوكت
١١ —	أنطونيو وكليوباترا، دراسة مقارنة بين شكسبير وشوقي .	عبد الحكيم حسان
١٢ —	رفاعة الطهطاوي	أحمد أحمد بدوي
١٣ —	البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد .	عمر طوسون
١٤ —	شوقي بين العاطفة والتاريخ	محمد خورشيد
١٥ —	حافظ وشوقي	حسن كامل الصيرفي
١٦ —	دراسات في الشعر العربي المعاصر.	شوقي ضيف
١٧ —	تاريخ الشعر العربي الحديث	أحمد قبّش
١٨ —	حافظ وشوقي	طه حسين
١٩ —	الأدب العصري في العراق	رفائيل بطّي
٢٠ —	الشعر العراقي الحديث	يوسف عز الدين

الكتاب	المؤلف
٢١ ـ آداب العصر	سعد مخايل
٢٢ ـ لبنان الشاعر	صلاح لبكي
٢٣ ـ جدد وقدماء	مارون عبّود
٢٤ ـ الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة .	أنيس المقدسي
٢٥ ـ الأدب العربي المعاصر في مصر	شوقي ضيف
٢٦ ـ جميع مؤلفات طه حسين	
٢٧ ـ جميع مؤلفات عباس محمود العقاد	
٢٨ ـ رواد الشعر الحديث	مختار الوكيل
٢٩ ـ الشابي ، حياته وشعره	أبو القاسم محمد كرو
٣٠ ـ أبو ماضي والحركة الأدبية في المهجر .	نجدة فتحي صفوة
٣١ ـ الأدب العربي في المهجر	محمد عبد الغني حسن
٣٢ ـ الأدب العربي في المهجر	وديع أديب
٣٣ ـ الشعر العربي في المهجر	احسان عباس ومحمد نجم
٣٤ ـ جبران خليل جبران	ميخائيل نعيمه
٣٥ ـ محمود سامي البارودي	عمر الدسوقي
٣٦ ـ الموازنة بين الشعراء	زكي مبارك
٣٧ ـ القصة في الأدب العربي الحديث	محمد يوسف نجم
٣٨ ـ رواد النهضة الحديثة	مارون عبّود
٣٩ ـ تاريخ الصحافة العربية	فيليب دي طرازي

الكتاب	المؤلف
٤٠ ــ الرمزية والأدب العربي الحديث	انطوان غطاس كرم
٤١ ــ الرومانطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث .	عيسى بلاّطه
٤٢ ــ فارس الشدياق	بولس مسعد
٤٣ ــ ماذا يبقى من طه حسين	سامح كريم
٤٤ ــ مؤلفات محمد حسين هيكل (قصة زينب)	

ط ــ الأدب العربي السعودي :

١ ــ أدباء الحجاز	محمد سرور الصبّان
٢ ــ المعرض	محمد سرور الصبان
٣ ــ وحي الصحراء	عبد الله بلخير ومحمد سعيد عبد المقصود .
٤ ــ من تاريخنا	محمد سعيد العامودي
٥ ــ نفثات من أقلام الشباب الحجازي .	مجموعة من الكتاب
٦ ــ الشعراء الثلاثة	عبد السلام الساسي
٧ ــ شعراء الحجاز	عبد السلام الساسي
٨ ــ الموسوعة الأدبية	عبد السلام الساسي
٩ ــ شعراء نجد المعاصرون	عبد الله بن ادريس
١٠ ــ الأدب الحديث في نجد	محمد بن سعد بن حسين

الكتاب	المؤلف
١١ — التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية .	عبد الله عبد الجبار
١٢ — الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية .	بكري شيخ أمين
١٣ — تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية .	عثمان حافظ
١٤ — الصحافة في الحجاز	محمد عبد الرحمن الشامخ
١٥ — شعراء هجر	عبد الفتاح الحلو
١٦ — مجلة المنهل	
١٧ — جميع الصحف السعودية والمجلات	
١٨ — محمد بن عبد الوهاب	أحمد عبد الغفور عطار
١٩ — من أدبنا المعاصر	طه حسين
٢٠ — تاريخ نجد	محمود شكري الألوسي
٢١ — زعماء الاصلاح في العصر الحديث	أحمد أمين
٢٢ — شعراء الجنوب	محمد بن علي السنوسي
٢٣ — بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين (جامعة الملك عبد العزيز)	
٢٤ — مؤلفات الأدباء السعوديين ودواوين شعرهم .	

جدة ١٣٩٨ هـ

١٩٧٨ م